امـــين الريحـــاني

بقلم عيسى الناعوري

لست استطيع ان اكتب — حين اكتب — عن امين الريحاني (١٨٧٦ — ١٩٤٠) الا وفي نفسي وذهني منه اكثر من صورة واحدة واكثر من شخصية واحدة ، فهو عندي اكثر من اديب ، هو كاتب وشاعر ، وهو رحالة كثير الرحلات والمؤلفات ، وهو رسول اصلاح اجتماعي ووطني وانساني ، وهو فيلسوف اجتماعي ، وهو داعية قومي ، عمل للوحدة العربية قبل ان يفهم العرب معنى الوحدة واهميتها وضرورتها لهم ، وحين لم يكن يؤمن بالعروبة والقومية العربية الا افراد قلائل جدا بين العرب .

هو كل ذلك في آن واحد ، والكتابة عنه يجب ان تتناول ذلك كله ، والا كانت كتابة عن جانب واحد من جوانبه الكثيرة ، وعن شخصية واحدة من شخصياته المتعددة ، وعن موهبة واحدة من مواهبه الكبيرة .

ولد امين بن فارس الريحاني في قرية الفريكه في لبنان في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٨٧٦ ، وتوفي فيها سنة ١٩٤٠ . وبين هذين التاريخين اربع وستون سنة تنقل فيها امين بين الشرق والغرب ، فركب البحر بينهما اكثر من عشرين مرة ، منذ ان كان في الثانية عشرة من عمره ، وتجول في الصحاري العربية ، فزار ملوكها وامراءها ، وعاشر شعوبها ، كما تجول في بلاد الغرب الاوروبية والاميركية ، وخرج من كل ذلك بمؤلفات لا تقل عن خمسين مجلدا ، كتب بعضها بلغة الضاد وبعضها بالانكليزية ، وكثير منها طبع في حياته ، وبقي بعضها ليتولى اخوه البرت الريحاني اصداره بعد موته ، وقد فعل البرت ذلك ، فكان امينا كل الامانة ووفيا كل الوفاء لاخيه امين ، ولادب اخيه امين ، وللامة العربية وآدابها التي عاش امين حياته لاجلها ، ولاجل رفعتها ومجدها .

دخل امين المدرسة ، اول ما دخلها ، في قريته الفريكه . فتتلمذ هو واخته سعدى على الخوري مرقس ، في كنيسة مار مارون ، ثم لم يلبث ان انتقل الى مدرسة المعلم نعوم مكرزل — صاحب جريدة الهدى في اميركا فيما بعد — ولما بلغ الثانية عشرة من عمره سافر الى اميركا مع عمه (عبده) ومعلمه نعوم مكرزل . وهناك ادخله عمه في مدرسة راهبات المحبة ليتعلم اللغة الانكليزية ، فلم يمكث فيها اكثر من عام واحد ، ثم اخذ يعمل مع عمه وابيه — الذي كان قد لحق بهما الى هناك — في التجارة — وفي السابعة عشرة من عمره انصرف الى التمثيل المسرحي ، وراح يجوب ارجاء البلاد الاميركية مع فرقة تمثيلية معروفة هناك نحوا من ثلاثة اشهر ، ثم عاد الى العمل في متجر ابيه وعمه من جديد .

غير انه في عمله التجاري لم ينقطع عن الدرس والمطالعة ، فالتحق بمدرسة ليلية وراح يواصل الدرس كما استمر يطالع الكتب الإنكليزية والفرنسية ، وفي الوقت نفسه اخذ يكتب آراءه وخواطره بلغة عربية غير سليمة ويرسلها الى جريدة الهدى ، التي انشاها معلمه نعوم مكرزل في نيويورك ، فكان معلمه يصحح لغة مقالاته قبل نشرها .

ولم يلبث امين ان مرض وهزل جسمه ، فعاد الى لبنان ليجد العافية في ربوعه ، وكان ذلك عام ١٨٩٨ . وهناك اخذ يعمل معلما للغة الانكليزية في مدرسة قرنة شهوان ، القريبة من الفريكة ، وراح في الوقت نفسه يتعلم اللغة العربية .

وفى هذه المدرسة وقع فى يده كتاب لزوميات ابي العلاء المعري . فعكف على درسها بعناية واهتمام ، فامتلات نفسه اعجابا بالمعري وشعره الإنساني ، فآلى على نفسه ان يترجم شيئا من اللزوميات الى اللغة الانكليزية ، ليقدم للعالم الغربي هذا الشاعر العربي القديم المبدع .

وفي ذلك يقول في مقدمة كتابه (ملوك العرب) :

عدت الى بلادي كئيبا . . . وكنت لا اعرف من لغتي وآدابها غير اليسير اليسير ، فتغلغلت في سراديبها دون ان ارثي لحالي . وبينا انا اتخبط في دياجي اللغة عثرت على كتاب شعر انساني الكسائي وسيبويه وكل من علم حرفا في البصرة والكوفة .

جمعني الله ، سبحانه وتعالى ، بابي العلاء المعري ، بعد ان هداني بواسطة الفيلسوف الانكليزي — كارليل — الى الرسول العربي . قرات اللزوميات معجبا بها ، ثم قراتها مترنحا ، ورحت افاخر باني من الامة التي نبغ فيها هذا الشاعر الحر الجسور الحكيم .

عدت الى اميركا استصحب اللزوميات ، وكنت ترجمانه هناك . . .)

والى ذلك الحين الذي عرف فيه الريحاني ابا العلاء ، لم تكن معرفته لبلاده العربية ، ولحقيقة امته العربية وقوميته ذات بال . ولم يهتد الى شيء من ذلك الا عن طريق الاجانب ومؤلفاتهم ، وكان ذلك يحز في نفسه كثيرا . وفي ذلك يقول في مقدمة (ملوك العرب) عينها :

(كان كارليل اول من عاد بي من وراء البحار الى بلاد العرب اجل ، وقد يستغرب قولي اني عرفت بواسطة الكاتب الانكليزي الكبير سيد العرب الاكبر النبي محمدا ، فاحسنت لاول مرة بشيء من الحب للعرب ، وصرت اميل الى الاستزادة من اخبارهم .

ثم في غزواتي الكتب الانكليزية غنمت كتابا استوقفني ظاهره الفخم ، وراقتني الصور فيه . وما كان العنوان

● من كتاب (دراسات فى ادب المهجر) للمؤلف ، تقوم بنشره دار المعارف فى مصر .

لينبئني بشيء اكرهه او احبه . قرات كتاب (الالهمبرا) فادركت ان المؤلف يريد بالعنوان (الحمراء) ، وعرفت ان الحمراء لوءلوءة تاج العرب في الاندلس .

لله انت ايتها البلاد العربية التي لم يشأ الله ان اجهلك حياتي كلها ، فبعث الي ، وانا بعيد عنك ، انكليزيا يعرفني الى رسولك ، واميركيا يصف لي محاسن ابنائك)

ومن هنا راحت الفكرة تختمر في راس الريحاني ليطوف البلاد العربية ، وليتعرف اليها والى شعوبها عن كثب ، وقد فعل ذلك حينما اتيحت له الفرصة ، ووضع في رحلاته المؤلفات التالية بالعربية :

(ملوك العرب ، جزان ـ تاريخ نجد الحديث ـ قلب العراق ـ قلب لبنان ـ المغرب الاقصى) والكتاب الاخير لم يطبع بعد .

ووضع بالانكليزية كذلك : (ابن سعود ونجد ـ حول الشواطىء العربية ـ بلاد اليمن) .

والريحاني بهذه المؤلفات لا يزال اكبر مرجع عربي ـ الى يومنا هذا ـ في تعريف العرب ببلادهم . ودراساته عن البلاد العربية التي ما تزال تدعى بالمحميات ـ وهي في كتابه « ملوك العرب » ـ لا تزال اوفى المصادر العربية في التعريف بتلك البلاد العربية التي ما تزال تحت النفوذ الاجنبي . ولعل الريحاني كان بهذه الرحلات اول من فكر من العرب في عصرهم الحديث في ان الوحدة العربية لا يمكن ان تقوم بغير ان يعرف العرب بعضهم بعضا ، وبغير ان يعرفوا الظروف المختلفة والبيئات المتباينة التي يعيش فيها كل قطر من اقطارهم . وبكلمة اخرى لا يمكن تحقيقها عن غير طريق الدراسة الوثيقة لاحوال الاقطار العربية وشعوبها ، وظروف معاشهم ، وعاداتهم وتقاليدهم، ووسائل الحياة عندهم .

وعدا المؤلفات المتقدم ذكرها كتب الريحاني كتبا اخرى تكمل حلقات رحلاته ، وتعرف بملوك البلاد العربية وامرائها ، كما تبين حالة البلاد العربية فى ذلك الحين . ومن هذه الكتب ، بالعربية :

(فيصل الاول ـ النكبات ـ التطرف والاصلاح ـ خارج الحريم ـ زنبقة الغور ـ الريحانيات) وبالانكليزية (العراق ـ الملك فيصل) ولم ينشر هذان الكتابان بعد .

وليست هذه كل مؤلفاته ، فهناك مؤلفات ادبية اخرى بالعربية والانكليزية ، بعضها طبع مرة واحدة ، وبعضها اعيد طبعه مرتين او اكثر، وترجم الكثير منها الى لغات عالمية متعددة ، لا تقل عن خمس عشرة لغة . وفي ما يلي نتم سلسلة مؤلفاته فنذكر : (موجز تاريخ الثورة الفرنسية ـ المحالفة الثلاثية ـ المكاري والكاهن ـ ثلاث خطب ـ انتم الشعراء ـ وفاء الزمان ـ سجل التوبة ـ رسائل امين الريحاني ـ وجوه عربية وغربية) وهذه كلها باللغة العربية . وباللغة الانكليزية الكتب التالية :

(رباعيات ابي العلاء المعري ـ المر واللبان ـ كتاب خالد ـ لزوميات ابي العلاء ـ تحدر البلشفية ـ جادة الرؤيا ـ انشودة الصوفيين ـ دروس في الف ليلة وليلة ـ وجده ـ كريمه) .

يضاف الى هذه المؤلفات كلها مجموعات كبيرة من المقالات والمحاضرات والرسائل باللغتين العربيةوالانكليزية لم تجمع بعد في كتب مستقلة .

بدا ظهور الريحاني الادبي فى المهجر قبل ان يعرفالناس جبران خليل جبران ورفاقه الاخرين، وكان اول من كتب الشعر المنثور بين العرب، متاثرا في ذلكبالشاعر الاميركي وولت ويتمان، الذي كان يعمل لتحرير الشعر من قيود الوزن والقافية . وقد راقت طريقته هذه للريحاني واستهوته ، فكتب عددا من القطع الشعرية المنثورة ، ونثرها بين تضاعيف (الريحانيات) . وقد جمعها اخوه البرت اخيرا في كتاب مستقل دعاه (هتاف الاودية) . وفي ما يلي نموذج منها بعنوان (دجلة) :

اسامحه والقلب فى يدي
احييه والروح على لساني
اقف امامه نتكشف امامي اعاجيب الزمان
له كلمة تخيف ، وكلمة تثير ، وكلمة تحيي وتميت
وهو يسير فى سبيله هادئا مطمئنا
يحمل الخير من الشمال الى الجنوب
من اقليم الى اقليم يجيء بفيضه
يتحول غربا وشرقا لتعم بركاته البلاد
تقول له الجبال : اقرأ السهول امامنا
ويقول هو للسهول : اقرئي سلامي تخطان ومضر .
هو رب العراق ، هو حياته الخالدة
عينه عين الدهر ، ولسانه لسان الزمان
وحافظته حافظة الخالد من الاكوان
شاهد من الممالك ما قام منها بالسيف
وما قام منها بكلمة سحر حلال
وما قام منها بالعلم والفنون
تلألأت على ضفافه انوار السرور والاهواء
وجرت فى ظلال نخيله مواكب العزة والمجد
واضمحلت آثار العظمة كلها ـ الى حين ـ
وظل هو سائرا فى سبيله هادئا مطمئنا .

على ان هذا الاسلوب المنطلق الذي ينثر الخيالالشعري الجميل في العبارات النثرية القصيرة ، لم يلبث ان استهوى جبران كذلك فيما بعد، فانطلق يكتب محلقا ، وابدع فيه ما شاء له نبوغه وعبقريته، فنسي الناس ان الريحاني كان اسبق منه الى هذا الاسلوب ، واعتبروه من ابداع جبران نفسه، لان جبران تفوق فى ابداعه فيه على القليل الذي كتبه الريحاني بهذا الاسلوب نفسه، فمؤلفات جبران التالية كلها مكتوبة بهذا الاسلوب الشعري الغني بالخيال والجمال والصور الروائع، والاحاسيس الدافئة الهامسة : (النبي ـ يسوع ابن الانسان ـ دمعة وابتسامة ـ المجنون ـ التائه ـ السابق ـ) وغيرها .

وكان الريحاني منذ صغره، وقبل ان يتمرن على حمل القلم لترجمة احاسيسه فى مقالات وخطب وكتب، يجيل

فكره في مجتمعه وشؤونه، فكانت نفسه تثور على ما يعانيه مجتمعه من صنوف الجهل والجور، وما يخضع له شعب بلاده من عبودية. وحينما اصبح قادرا على التعبير عن ثورته هذه بالقلم راح يصب نقمته شواظا من نار على كل لون من الوان الجهل والظلم والعبودية، تارة ساخطا معنفا، وطورا متهكما ساخرا. فلقي على ذلك الكثير من حملات رجال الدين ورجال الاقطاع معا، فنشروا في اوساط الشعب الساذج الجاهل ان الريحاني ملحد يفسد الضمائر ويحاول ان يهدم الدين ويزرع الشكوك في نفوس الشعب. وزاد رجال الدين ان حاربوا كتبه وجعلوها في القائمة السوداء التي لا يجوز قراءتها، وفرضوا الحرمان من الكنيسة على من يتجراون على قراءة شيء منها.

ولكن هذا كله لم يردع الريحاني عن ان يقول كلمته ويمشي، مؤمنا بان الحقيقة هي التي تعيش دائما، واما الجهل والجور والعبودية فمصيرها الى الزوال.

وهكذا مضت فاسه تطرق الصخور بضربات قوية حازمة، لا تخور ولا يعتريها وهن.

ومثلما حارب الريحاني الجهل وعبودية رجال الاقطاع والاكليروس حارب كذلك الاستعمار الفرنسي في لبنان وسوريا، والبريطاني في مصر والعراق وفلسطين، وحمل عليه حملات كثيرة قاسية بمقالاته وخطبه ومؤلفاته. وقد لقي على هذا ايضا كثيرا من العنت والاضطهاد، ولكنه استمر في طريقه بتصميم وايمان راسخين.

وحارب كذلك التفرقة والتباعد بين ابناء الامة العربية، والذي يقرأ كتابه (ملوك العرب) يرى كيف كان الريحاني في سياحته في الجزيرة العربية يسعى ويعمل بكل قواه ليزيل العداء من نفوس ملوك الجزيرة وامرائها، فقد توسط بين ملك نجد ـ عبد العزيز آل سعود ـ وامير الكويت حتى احل التفاهم بينهما محل الخصام، وسعى بين ملك الحجاز ـ الحسين بن علي ـ والشريف الادريسي ليعقد بينهما محالفة اخوة ومودة، وليوحد بين بلديهما لمصلحة العرب، ووضع بنفسه مسودة الاتفاقية بينهما، وان لم يصل الى النجاح الذي يريده. وكان يريد ان يوجد حلفا عربيا يجمع ملوك الحجاز ونجد واليمن والادريسي في امبراطورية عربية واحدة.

وهكذا جمع الريحاني، بين الادب، والاصلاح الاجتماعي، والدعوة الوطنية والقومية، فكان في كل ذلك رسولا امينا يؤدي رسالة الحب والخير والتعاون الى المجتمع العربي كله، كما كان في الوقت نفسه رسولا بين الشرق والغرب، يحمل الى الشرق دعوة القوة والمدنية عن الغرب، ويحمل الى الغرب الروحانية الخيرة المسالمة عن الشرق. وقد ادى هذه الرسالات كلها الى آخر يوم من حياته.

ولئن كان الريحاني قد لقي محاربة قوية من رجال الاكليروس ورجال الاقطاع في لبنان ـ بشكل خاص ـ فقد لقي كذلك كثيرا من التكريم والحفاوة والاجلال حيثما حل في العراق، ومصر، والمغرب العربي، وفلسطين، وسائر انحاء الجزيرة العربية. وقد اقيمت له الحفلات العديدة في كل مكان، تقديرا لادبه وجهاده وسعيه المخلص الى الاصلاح ومحاربة الفساد، والعمل على نهضة الشرق وتحريره.

وقد جاء في كتاب (امين الريحاني) لمارون عبود مايلي:

... وكما توج فولتير من قبل توج الريحاني باكليل من الغار في حفلة شائقة اقامها على شرفه نادي الثريا الاميركاني، كما انبانا سليم سركيس في مجلته المرموقة باسمه، قال: لم احضر حتى الان حفلة تتويج ملك من ملوك البلدان والابدان، فهذه لا يدعى اليها الا اصحاب التيجان ومن كان على طريقتهم. على انني وفقت الى حضور حفلة تتويج احد ملوك البيان، اريد به امين الريحاني، الكاتب البليغ والشاعر المجيد، صاحب المؤلفات الرائعة في اللغتين العربية والانكليزية.

تلك حفلة اقامها نفر من امراء الشعر والنثر الاميركان في مدينة نيويورك تكريما لوطنينا امين الريحاني، على اثر ما تبينوه في مؤلفاته من الادب الجم، وذلك على اثر انتشار كتابه (اللزوميات) باللغة الانكليزية.. ولما فرغ الفضلاء من اقوالهم دعي امين ريحاني الى منبر خاص اقيم هناك، والقى رئيس نادي الثريا الاميركي خطاب الثناء والاطراء والاعجاب، ثم تناول الاكليل وتوج به الامين).

وذكر مارون عبود كذلك ان اسم الريحاني قد ذكر في دليل مشاهير كتاب اميركا وكندا سنة ١٩٣٠، وفي دليل مشاهير الادباء المطبوع في انكلترا.

هذا شيء عن الريحاني ومؤلفاته، وشهرته الادبية في الشرق والغرب، وهو يكفي لبيان مدى ما بلغه الريحاني من الشهرة الواسعة كأديب واقعي، ورسول ادبي قومي، ومصلح اجتماعي، وما اداه من رسالة ادبية سامية تظل معها مؤلفاته جديدة كلما تقادم عليها الزمن.

ولقد عاش الريحاني في المهجر مع جبران ونعيمه ورفاقهما، وكتب معهم في الفنون والسائح، كما كتب في الهدى ومرآة الغرب وغيرهما من صحف المهجر، ولكنه لم يشترك معهم في الرابطة القلمية حينما انشئت. فقد كان بينه وبين جبران خلاف جر الى خصومة شديدة، فلم يكن ممكنا الجمع بينهما في رابطة واحدة.

الا ان هذا العداء الذي استحكم بين الاديبين الكبيرين في الحياة لم يمنع الريحاني بعد وفاة جبران من ان يرثيه بحرارة، وان يستقبل جثمانه حينما اعيد ليدفن في قرية بشري بنجوى دامعة مخلصة في الوفاء قال فيها:

(جبران، اخي ورفيقي وحبيبي

ان للشهرة يوما، وللحزن يوما، والباقي للبنان

لهذا الجبل العزيز الكريم الحنون، الذي يضمك اليوم وغدا يضمني اليه

ان ترابي، غدا، في الفريكة يناجي ترابك في الوادي المقدس

ومن ظلال الصنوبر الذي سيظلل ضريحي، سيحمل النسيم قبلات عطرة، صباح مساء، الى ضريحك في ظلال الارز)

نسيم لبنان

الى اصدقائي بلبنان : القاص كرم ملحم كرم والشاعر امين نخله والكاتب جان كميد

منك النوافح ، ما رفت على الوادي ... حتى تغمر فيها بحرك الصادي
وما النسيم سوى انفاس عاشقة ... موصولة الحب لم تلمم باحقاد
ان رق قيل عليل هف في سحر ... وما احيط باوجاع وعواد !
يا نسمة الصبح من لبنان ، ما صنعت ... لك الشوامخ من شغاف أبراد ؟
مررت بالعطر فاهتاجت مباسمه ... وراح فى الركب لا درب ولا حادي
واهتز زهر تمنى لو يذوب هوى ... على الغصون التي راحت بمياد
لا لون لا طعم الا لمس ناعمة ... من الانامل تسري فوق اكباد
خصائل الشعر ، من حسناء هائمة ... مع الهبوب الذي يمضي لآماد
لو ترغبين الندى اتبعت غانية ... ألقت رؤاها على لماح آباد
تمشي على زهو الوان بمنمنمة ... تمد عين الصبا للفارس الغادي
هذا الزفير (١) تثنى في ملاعبه ... كانه اقعوان الهند والشادي
وصاغه « بان » رب الناي منسكبا ... على السفوح يرويها بانشاد
تلك المظلات في تاليه وقفتها ... على الهضاب تدانيني لميعاد
عرف الصنوبر في عليا ئسمتها ... وتحت اظلالها ملتف قصاد
يا طائر الغرب اجواز الفضاء لنا ... فنحن اصحابه في شعب اجواد
نحن النسور اعالينا مدومة ... فوق الرياح وكم تحلو لمرتاد
قيثارة الله غنتها وحين اتى ... عهد التبابيع صاغتها لعباد
رفرف ابا ذائب الارواح في ملأ ... من الخلود باغوار وانجاد
هذي جنائن احلام طوت زمنا ... عند النجوم وحطت فوق اطواد

دمشق ... زكي المحاسني

(١) الزفير فى الاساطير اليونانية le zephyr رمز للنسيم (٢) بان آله النسيم الذي ينفخه فى مزامير الابد .

وحينما اصدر ميخائيل نعيمه كتابه عن حياة جبران، عام ١٩٣٤ ، كان الريحاني اول من فطن الى ما فيه من غمزات يقصد بها الاساءة الجارحة الى جبران الانسان، واول من ثار فى وجه نعيمه لاجلها، ودخل معه في عراك شديد العنف على صفحات الجرائد اللبنانية .

كان الريحاني قد اصيب منذ عام ١٩٠٧ بمرض عصبي فى يده اليمنى، وقد رافقه ذلك الداء الى آخر حياته ، ولعله السبب الذي ادى الى مصرعه عام ١٩٤٠ ، فقد كان يقود دراجته في الشارع العام على مقربة من الفريكة ، فسقطت به سقطة عنيفة ، فنقل الى المستشفى، ولم يلبث فيه سوى ايام قلائل، ثم انتقل الى الرفيق الاعلى في مستشفى ربيز فى بيروت، فى الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم الجمعة ١٢ ايلول سنة ١٩٤٠ .

وفي بيت الريحاني فى الفريكة اليوم متحف صغير خصصه اخوه البرت الريحاني لكل ما خلفه امين بعد موته من آثار، ففيه الهدايا والرسائل التي تلقاها من ملوك العرب وامرائهم، والملابس التي كان يرتديها اثناء سياحته فى الاقطار العربية ، ونسخ من مؤلفاته العديدة . وهناك غرفة اخرى بقيت كما كانت فى عهد امين بسقفها المزخرف، وارضيتها الخشبية ، وغرفة أخرى تحوي مكتبته الكبيرة الفخمة . وغرفة رابعة ما تزال فيها الصورة الدينية التي كانت تتعبد لها المرحومة ام امين الورعة طوال حياتها. وقد كان امين حريصا كل حياته على رضى امه ومحبتها، وعلى ان تظل لها عبادتها المفضلة . وما يزال اخوه البرت حريصا كذلك على ان يبقى هذا الاثر من آثار تقواها وعبادتها الملازمة ، حرصه على اثار اخيه الادبية ، وعنايته بطبعها طبعات انيقة فخمة تليق بمكانته العالية .

عمان ... عيسى الناعوري

قوانين الفكر فى منطق ارسطو

بقلم صادق جلال العظم

يقـــع مبـدا عـدم التناقض والثـالث المرفـوع (١) Law of excluded Middle فى مجموعـــة المبادىء التي تدعى تقليديا بقوانين الفكر ، واهم مبدا في هذه المجموعـة هو قانون عدم التناقض ، اما مبدا الثالث المرفوع فهو متمم لهذا القانون ولذلك سنرى ان معظـم الادلة التي يبرزها ارسطو فى دفاعه عن قانون عـدم التناقض تصلح ايضا للدفاع عن مبدا الثالث المرفـوع ، ولكنه بالرغم من ذلك يعطينا حججا وادلة للدفاع عن المبدا الثاني كقانون قائم بذاته .

في فلسفة ارسطو يمتزج علم المنطق بعلم الانطولوجيـا بشكل يتعذر معه دراسة الواحد دون الرجوع الى الاخر ، ومثالنا على ذلك كتاب « المقولات» حيث نجد ارسطو يعالج موضوع المقولات من وجهتين اولا الوجهة المنطقية ــ اللغوية الصرفة ، ثانيا الوجهة الانطولوجية (او الميتافيزيقية) . اذا نظرنا الى هذا الموضوع من الوجهـة الاولى نرى ان المقولات ليست سوى ادوات لغوية مؤلفة من اعم التعابير والكلمات فى اللغة مثل الكمية والكيفية والزمان والمكان الخ. واذا نظرنا اليه من الوجهة الثانية (اي الوجهة الانطولوجية) نرى ان المقولات تؤلف عنصرا اساسيا فى طبيعة وحقيقة الاشياء وتشير الى اجناسها العليا . فاذا انطولوجيا كل مقوله تمثل وجها من وجوه الوجود المختلفة مثل الجوهر والزمان .. وهذه الوجوه التي تعبر عنهـا المقولات هي وجهات متمايزة ومتحققة فى كل الاشياء . ونستنتج من ذلك ان المقولات منطقية ــ لغوية من حيث هي اقسام تندرج تحتها الموضوعات والمحمولات وحقيقة انطولوجية من حيث هي اقسام تترتب فيها الاشياء نفسها .

يعالج ارسطو قوانين الفكر بطريقة تماثل معالجتـه لموضوع المقولات ولذلك نرى انه يبحث فى هذه القوانين من ذات الوجهتين اي الوجهة المنطقية ــ اللغوية والوجهة الانطولوجية . ولنوضح علاقة الوجهة الاولى بالثانية نرجع الى كتاب « ما بعد الطبيعة » (ص ١٠١١ ب س ١٣ــ١٧) حيث يعتبر ارسطو التناقض المنطقي بين قضيتين خاضعا لتنافي وتباين الصفات التي تشير اليها هاتان القضيتان ، بعبارة اخرى وجود الصفات المتنافية والخصائص المتناقضة فى عالم الواقع هو الاساس الذي يرتكز عليه التناقض المنطقي الصرف ، فلولا وجود خصائص وصفات متنافية فى عالم الواقع لما وجد التناقض فى عالم المنطق ؛ وهذا يعني ان ارسطو يعتبر ان المنطق يرتكز على خصائص العالم الواقع وطبيعته وقوانين المنطق الاساسيـة (اي قوانين الفكر) تصف وتعكس صفات وخصائص هـذا العالم . نستخلص من هذا ان ارسطو لم يعتبر قوانين الفكر كمسالة منطقية ــ لغوية بحتـة كبعض المفكرين الحديثين بل راى ان لهذه القوانين اساسـا ومكانـة انطولوجية ، بكلام اخر الوجهة المنطقية اللغوية لهـذه القوانين هي انعكاس للوجهة الانطولوجية . فيما يلي نورد ما ينص عليه كل من هـذين المبداين مع التمييز بين الوجهتين المذكورتين .

١ ــ من الوجهة الانطولوجية ينص قانون عدم التناقض على ما يلي : اي شيء اما ان يوجد او لا يوجد فى آن واحد . او الشيء ذاته اما ان يكون حاصلا او لا يكون حاصلا في شيء اخر فى آن واحد ومن وجهة واحدة .

ب ــ من الوجهة المنطقية ــ اللغوية ينص قانون عـدم التناقض على ما يلي : اية قضية اما ان تكون صادقـة او كاذبة فى آن واحد .

٢ ــ من الوجهة الانطولوجية ينص قانون الثالث المرفوع على ما يلي : اي محمول على الاطلاق اما ان يكون حاصـلا فى موضوع او لا يكون حاصلا فى موضوع .

ب ــ من الوجهة المنطقية ــ اللغوية ينص قانون الثـالث المرفوع على ما يلي: اية قضية على الاطلاق اما صادقة او كاذبة .

كما ذكرنا سابقا الوجهة المنطقية ــ اللغوية لهذه القوانين هي على ما هي عليه لانها ترتكز على طبيعة الاشياء عامـة كما تعبر عنها الوجهة الانطولوجية ، اي ان (ب) نتيجـة تتبع من (ا) .

يعتبر ارسطو قوانين الفكـر الاصول الاولى للبراهين ، والمقدمات الاولية والاساسية للمعرفة والعلم . في كتاب « التحليلات الثانية » (مقالة(١) فصل ١ــ٢) يثير ارسطو قضية التعليم (التي اثارها من قبله افلاطون فى «المينون») ويعتبر ان كل علم وكل تعلم يستند دائما الى علم سابق يملكه المتعلم وقوانين الفكر تؤلف جزءا من المبادىء الاولية اليقينية التي يجب ان يملكها المتعلم قبل ان ينتج اي تعلم او علم وهذه المقدمات الاوليـة لا تفتقر الى البرهان ولا تحتمله وانما هي اصول البراهين والاسس التي يتمشى القياس بموجبها ومن واجبات الفيلسوف البحث والكشف عن هذه المقدمات الاولية اليقينية العامة (ما بعد الطبيعـة ص ١٠٠٥ ب س ٦ ــ ٢٣)

فى كتاب العبارة (مقالة ٩) يتناول ارسطو بالبحث قضية المنفصلة (٢) وهي تتالف من قضيتين متناقضتين احداهما

---

(١) تبعنا الاستاذ يوسف كرم فى استعماله لتعبير « مبدا الثالث المرفوع » فى كتابه « تاريخ الفلسفة اليونانية » ص ١٢٩ القاهرة ١٩٥٢ الطبعة الثالثة .

(٢) ابن سينا يدعوها « القضية الشرطية المنفصلة » لانه يعتبر ان القضية الشرطية تنقسم الى (ا) القضية الشرطية المتصلة (ب) القضية الشرطية المنفصلة ومثاله على الاخيرة « اما ان يكون هذا العدد زوجا واما ان يكون فردا » النجاة ص ١٢ القاهرة ١٩٢٨

موجبة والاخرى سالبة disjunctive judgment ويميز بين القضية المنفصلة الماضية والحاضرة من جهة والقضية المنفصلة المستقبلة من جهة اخرى . في القضايا المنفصلة الماضية والحاضرة يجب ان تكون احدى القضيتين المتناقضتين صادقة والاخرى كاذبة بالضرورة، بعبارة اخرى لا يجوز تقابل التناقض فى القضايا الماضية والحاضرة . اما في القضايا المستقبلة فليس من الضروري ان تكون احدى القضيتين صادقة بالضرورة والاخرى كاذبة بالضرورة ، اي يجوز تقابل التناقض فى القضايا المستقبلة ، وليوضح ارسطو موقفه يعطينا المثال التالي : الحرب ستكون غدا او لا تكون في هذا المثال لو اخذنا كلا من القضيتين المتناقضتين على حدة (الحرب ستكون غدا ، انها لا تكون غدا) (٣) يتعذر البت بضرورة صدق احداهما وكذب الاخرى ولكن اذا اخذنا القضيتين معا كوحدة فان القضية المنفصلة المؤلفة منهما هي صادقة بالضرورة كوحدة مؤلفة من القضيتين المتناقضتين ولكن اذا اخذنا كلا من القضيتين على حدة يجب ان تكون احداهما صادقة بالضرورة والاخرى كاذبة بالضرورة . هذا التميز فى تطبيق قانون الثالث المرفوع على القضايا المنفصلة الماضية والحاضرة من جهة وعلى القضايا المستقبلة من جهة اخرى، وقوله بتقابل التناقض في القضايا الممكنة المستقبلة لهما علاقة وثيقة ليس بمبدا الحرية الانسانية فقط بل بمبدا الحرية الكونية . في هذه المقالة يعترف ارسطو ان بعض الاحداث في العالم لا تقع بالضرورة وليس الايجاب فيها قبل الحدوث باصدق من السلب (٤) والنتيجة المنطقية لاعترافه هذا هي بطلان الراي القائل ان مبدا السببية قانون طبيعي مطلق يسير جميع الاحداث دون استثناء وقوله هذا يترك مجالا للاتفاق والبخت (او الحظ) ليلعبا دورا حقيقيا فى سير الاحداث ووقوعها (٥) .

قبل ان نبسط دفاع ارسطو عن قوانين الفكر يجب ان نجيب على سؤالين : اولا لماذا يدافع ارسطو عن هذه القوانين ؟. ثانيا ضد من من الفلاسفة وجه ارسطو دفاعه؟ جوابنا على السؤال الاول هو ان ارسطو يدافع عن قوانين الفكر لان بعض الفلاسفة اللذين سبقوه نشروا تعاليما تنفي صحة هذه القوانين وتشك بشرعيتها . وجوابنا على السؤال الثاني هو ان ارسطو وجه دفاعه عن قوانين الفكر ضد هرقليطس، انا كساغوراس وبروتاغوراس . والان ننتقل لنرى كيف نفى كل من هؤلاء الفلاسفة صحة قوانين الفكر .

علم هرقليطس ان جميع الاشياء في تغيير متصل دائم ورفض القول بوجود اي شيء فى حالة استقرار وثبوت

(٣) من ترجمة اسحق بن حنين « لكتاب العبارة » ـ عبد الرحمن بدوي ، « منطق ارسطو » المجلد الاول ص ٧٥

(٤) كتاب العبارة ص ١٦ س ٦ ـ ٢٥ (٥) يعود ارسطو فى كتاباته الاخرى للاعتقاد بقانون السببية كمبدا مطلق ولا يترك مجالا للاتفاق والبخت فى العالم .

كالجوهر مثلا الذي يعمل كموضوع للتغير، ويتبع من ذلك ان في عالم يسود فيه التغير يمتنع تعيين خصائص ثابتة للاشياء فكل لحظة من الكون تتضمن لحظة من الفساد ، والعدم يتخلل الوجود فنحن «ننزل النهر ولا ننزل» ونحن موجودون وغير موجودين (من حيث ان الفناء يدب فينا فى كل لحظة) . فاذا فى رايه كل شيء هو كذا وليس كذا فى ان واحد وموجود وغير موجود في ذات الوقت ، فتتلاقى الاضداد ويمتنع العلم ويستحيل وصف الاشياء بخصائص دائمة ضرورية ، لذلك تفقد قوانين الفكر صحتها لان جميع العبارات والاقوال صادقة فى هذا العالم المتغير ويغيب الكذب عن الوجود . (٦) هذه نتيجة تتبع من نظرية التغير الدائم لان في عالم كل شيء فيه كذا وليس كذا في آن واحد يمكننا ان نقول عن اي شيء كل ما نريده ونظل نقول الصدق عن ذلك الشيء فالاعتقاد بهذه التعاليم يتنافى مع القول بصحة مبداي عدم التناقض والثالث المرفوع لانهما ينصان على ان كل قضية يجب ان تكون اما صادقة اوكاذبة بالضرورة وعلى ان من طبيعة الاشياء ان تكون اما كذا او ليس كذا في برهة من الزمن بينما هرقليطس يعلم العكس تماما في نظريته التي تقول بتلاقي الاضداد فى طبيعة الاشياء والصراع بينها فاذا كانت حقيقة الكون والوجود كما يصفها هرقليطس فلا اساس اذا لقوانين الفكر فى هذه الحقيقة .

ملخص مذهب انكساغوراس هو ان الاشياء موجودة بعضها فى بعض على ما هي اي ان الوجود مكون من جواهر او طبائع لا متناهية عددا وصغرا تجتمع جميعها في كل جسم بمقادير متفاوتة ، فيتحقق بهذا التفاوت الكون والفساد ويتعين لكل جسم نوعه بالطبيعة الغالبة فيه . فكل جسم يكون اذا عالما لا متناهيا يحوي جميع الطبائع على اختلافها كلا بمقدار، وبعض هذه الطبائع التي يحويها كل جسم لا بد وان تتعارض وتتنافى مع طبيعته الخاصة (التي اكتسبها من الطبائع الغالبة فيه) اي ان كل جسم لكونه عالما لا متناهيا، تتلاقى فيه الاضداد ويحتوي على نقيض نفسه ، لذلك يستحيل وصف اي شيء باية صفات خاصة به دون غيره فان هذا الشيء يحتوي على عدد لا متناهي من صفات اخرى يتناقض البعض منها مع الصفات التي نريد ان نخص هذا الشيء بها . هذه التعاليم هي تعطيل لمبدا الثالث المرفوع الذي ينص على ان كل جسم اما ان يحتوي على بعض الطبائع او لا يحتوي عليها . النتيجة المنطقية لهذا المذهب هي ان الاقوال والقضايا ليست صادقة او كاذبة بالضرورة كما ينص قانون الثالث المرفوع (٧) كما انه ليس من الضروري ان تكون المحمولات اما حاصلة او غير حاصلة في موضوع كما ينص القانون ذاته . الحقيقة في راي انكساغوراس هي ان فى القضايا المنفصلة لن نجد الصدق لا

(٦) ما بعد الطبيعة ١٠١٢ ا س ٢٤ـ٢٥

(٧) فى راي ارسطو هذه النظرية تجعل جميع القضايا والاقوال كاذبة (ما بعد الطبيعة ١٠١٢ اس ٢٥ ـ ٢٨)

في القضية السالبة ولا في القضية الموجبة ولكن في طريق وسط بينهما، اي ان موضع الصدق هو طريق وسط بين السلب والايجاب .

مذهب بروتاغوراس مشهور وهو ملخص في قوله « الانسان مقياس الاشياء جميعا . هو مقياس وجود ما يوجد منها ومقياس لا وجود ما لا يوجد (٨) » وبالنسبة لشروح افلاطون وارسطو هذا القول يعني ان الاشياء هي بالنسبة اليك على ما تبدو لي وهي بالنسبة اليك على ما تبدو لك ولا يوجد اي شيء واحد في ذاته وبذاته، او اي شيء يمكن ان يسمى او ان يوصف بالضبط، فكل شيء موجود على النحو الذي يحسه كل واحد منا وعلى ذلك تبطل الحقيقة المطلقة وتحل محلها حقائق متعددة بتعدد الاشخاص وتعدد حالات الشخص الواحد وبكلام آخر كل قضية يمكن ان تكون صادقة وكاذبة في آن واحد اذا اعتقد البعض بصدقها واعتقد اخرون بكذبها . هذه التعاليم تتنافى مع ما تنص عليه قوانين الفكر .

الخطوة الاولى التي يتخذها ارسطو في دفاعه عن مبداي عدم التناقض والثالث المرفوع هي التشديد على ان هذه المبادىء لا تدخل القياس لان القياس يتمشى بموجبها دون ذكرها ولا تحتمل البرهان لانها هي اصول البراهين، فمن العبث ان نطلب برهانا لجميع الاشياء لان كل برهان انما يستند الى مبادىء وبراهين سابقة ، ولكن لا تتسلسل المبادىء والبراهين الى غير نهاية فلا تتم ابدا، ولا تتوقف بعضها على بعض فتقع في دور فاذا لا بد وان تصل الى مبادىء ومقدمات اولية لا تفتقر الى برهان ولا تحتمله وانما هي مبادىء يقينية مؤدية بذاتها للعلم والبرهان . (٩) بالرغم من رايه ان قوانين الفكر كمبادىء اولية لا تحتمل البرهان اعتقد ارسطو ان هذه القوانين يمكن ان تبرهن سلبيا، بكلام اخر يرى ارسطو انه باستطاعتنا ان نقدم حججا واعتبارات مقنعة للدفاع واثبات صحة قوانين الفكر، وهذه الحجج والاعتبارات تؤلف برهانا سلبيا على صحة هذه القوانين (١٠) والان ننتقل لنبسط «البراهين السلبية» التي يقدمها ارسطو لصالح قوانين الفكر .

يقول ارسطو اذا وافق خصمنا الذي ينفي صحة قوانين الفكر ان يفصح عن رايه او حتى ان ينطق بكلمة واحدة ذات معنى (١١) يمكننا بذلك ان نرد عليه ونفضح ادعاءه ببطلان قوانين الفكر . ولكن اذا لزم خصمنا الصمت التام ورفض ان ينطق بكلمة واحدة ذات معنى فان املنا في اقناعه بصحة راينا هو كاملنا في اقناع نباته . ولكن لنفرض انه نطق بكلمة « انسان » فهذه الكلمة على حد قول ارسطو تعني كون شيء من الاشياء « انسان » ولا يمكن لهذه الكلمة ان تحتفظ بهذا المعنى المحدد وفي الوقت ذاته ان تعني عدم

(٨) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٦)

(٩) ما وراء الطبيعة ص ١٠٠٦ اس ٨ – ١٢ (١٠) نفس المصدر ص ١٠٠٦ اس ١٢ – ٢٢ (١١) نفس المصدر ص ١٠٠٦ اس ٢١ – ٢٢

كون هذا الشيء « انسان » بعبارة اخرى كون شيء من الاشياء « انسان » هو حالة محددة لا يمكن ان تكون في الوقت ذاته عدم كون هذا الشيء « انسان » . فحيثما ينطق خصمنا بكلمة واحدة ذات معنى (مثل انسان) يعترف بنطقه هذا انه لا يمكن لاي شيء ان يكون انسانا والا يكون انسانا في آن واحد . بعبارة اخرى حينما ينطق خصمنا بكلمة ذات معنى يتخذ قوانين الفكر كمبادىء اولية لنطقه، ويستنتج ارسطو مما سبق ان الكلام يصبح مستحيلا لكل من يصر على بطلان قوانين الفكر (١٢) .

يرى ارسطو في سلوك وافعال الناس برهانا على صحة تعاليمه التي نحن بصددها، فهو يقول ان الافراد اللذين ينفون صحة هذه القوانين في الحقيقة لا يؤمنون بما يقولون لان سلوكهم يتمشى بموجب القوانين ذاتها . (١٣) يتابع ارسطو بحثه قائلا لنفترض ان قوانين الفكر قد علقت ومن الممكن وصف الاشياء وعدم وصفها بذات الخصائص في آن واحد ففي هذه الحال تعم الفوضى في الكون وتفقد الاشياء خصائصها وصفاتها المحددة وتصبح جميع الاقوال والقضايا عن جميع الاشياء صادقة وكاذبة في آن واحد ويصبح الكلام مستحيلا ، وبالاضافة الى كل هذا تصبح جواهر الاشياء واحدة فتختفي الفوارق الجوهرية بين الانسان ، الحصان، المركب او الحائط . (١٤) هذه البراهين التي يقدمها ارسطو تقع في دور، فحينما يبسط لنا ارسطو النتائج الباطلة والمخالفة لتفكيرنا العادي التي تتبع من انكار البعض لصحة قوانين الفكر انه يسرد لنا نظريات هرقليطس وانكساغوراس بدلا من ان يجيب عليها فمثلا حينما يقول ارسطو ان انكار صحة قوانين الفكر يؤدي الى كون الاشياء دون خصائص وصفات محددة فانه يردد مذهب هرقليطس وادعاءه عن طبيعة الوجود ولا يرد عليه او يدحض هذا الادعاء . وقول ارسطو ان انكار صحة هذه القوانين يجعل الكلام مستحيلا هو ترديد لنقطة مهمة في مذهب انكساغوراس عوضا ان يكون جوابا عليها . يدعي ارسطو ايضا ان قبول المذهب القائل بامكانية الايجاب والسلب في آن واحد يزيل الفارق الاساسي بين الجوهر والعرض او الموضوعات والمحمولات بعبارة اخرى اذ اصبحت امكانية السلب والايجاب في آن واحد يفقد مفهوم «الجوهر» اهميته ولزومه وهذا لا يترك لنا سوى عوارض مضافة ومسندة الى عوارض اخرى التي هي بدورها مضافة الى عوارض اخرى الى ما لا نهاية له من العوارض . (١٥) ولكن في فلسفة ارسطو العوارض لا تضاف بعضها الى بعض ما لم يكن هناك جوهر يقبل هذه العوارض ويحملها لذلك ينفي ارسطو امكانية السلب والايجاب في آن واحد . هذا البرهان كالذي سبقه يقع في دور ايضا لان الفلاسفة اللذين يرد

(١٢) ما بعد الطبيعة (مقالة ٤ ، فصل ٤) (١٣) نفس المصدر ص ١٠٠٨ اس ٢١ – ٢٢ (١٤) نفس المصدر ص ١٠٠٧ ب س ١٩ – ٢٢

(١٥) ما بعد الطبيعة ص ١٠٠٧ اس ٢٠–٢٥ ، ١٠٠٧ ب س ١ – ١٨

ارسطو عليهم ادعوا ان في عالم يسود فيه التغير المتصل لا يوجد جواهر ثابتة محددة تقبل العوارض وتشكل موضوعا التغير . ان فلسفة التغير الدائم من الاساس تنكر وجود العلاقات الثابتة في طبيعة الاشياء كعلاقة الجوهر بعوارضه او الموضوع بمحمولاته . فارسطو يحاول ان يرد على هذه الفلسفة بالاشارة الى النتائج الباطلة التي تؤدي اليها مثل ازالة الفارق بين الجوهر والعرض ولكن مايعتبره ارسطو كنتيجة باطلة لهذه الفلسفة هي في الحقيقة خلاصة هذه الفلسفة التي يحاول نقضها وليست نتيجة لها .

في برهان آخر ضد النظريات التي بسطناها سابقا يدعي ارسطو ان هذه النظريات تناقض نفسها . فنظرية هرقليطس مثلا التي يستنتج منها ان جميع القضايا صادقة بطبيعة الحال تقول ايضا ان نقيض هذا القول صادق ايضا واذا كان نقيض هذا القول صادقا فان القول نفسه يجب ان يكون كاذبا .(١٦) هذا البرهان لا يطبق على خصوم ارسطو لانه يستند الى قانون عدم التناقض وخصومه لا يعترفون بمثل هذا القانون كما راينا .

يعطينا ارسطو نوعا آخر من هذه البراهين السلبية محاولا نقد خصومه بالبحث في الاصول والمصادر التي نشات منها نظرياتهم وبالاشارة الى الاغاليط الكامنة في هذه الاصول والمصادر . يرد ارسطو منشا نظرية هرقليطس في التغيير الدائم الى ما نشاهده من تغير في الطبيعة (١٧) ويسلم بان ما يتغير باتصال لا وجود له بكل معنى الكلمة (١٨) ولذلك لا يشكل موضوعا للصدق والكذب. ولكن ياخذ ارسطو على هذه النظرية عدم اعترافها بمبدا للثبوت والاستقرار في الكون بجانب مبدا التغير، وفي رايه خطا هرقليطس الاكبر هو اهماله مبدا الاستقرار وعوامل الثبوت في الكون واعترافه بمبدا التغير كقانون طبيعي مطلق. يشير ارسطو الى نوعان مختلفان من التغير : التغير الكمي والتغير الكيفي (١٩) وهو يسلم مع القائلين بنظرية التغير الدائم من حيث الكمية اما من حيث الكيفية فانه يجد نوعا من الاستقرار والثبوت في صورة الاشياء Form التي تمكننا من معرفة الاشياء وتميزها . بكلام آخر ارسطو ينبهنا الى الثبوت الذي نشاهده في صور الاشياء بالرغم من تغير كمياتها ومادتها . (٢٠) ولكن دعاة نظرية التغير الدائم يمكنهم الرد على ارسطو بتميزهم بين درجات من التغير وادعائهم ان الصورة او الكيفية التي يرى فيها ارسطو مبدا الاستقرار في الوجود هي في الحقيقة في تغير دائم ولكن هذا التغير في الكيفية أبطا بدرجات منه في الكمية . وياخذ ارسطو على فلاسفة التغير وصفهم للكون اجمع بخصائص يشاهدونها في قسم محدود منه فقط

(١٦) ما بعد الطبيعة ص ١٠١٢ ب س ١٢ – ١٨ (١٧) نفس المصدر ص ١٠١٠ اس ٥ – ١٢ (١٨) نفس المصدر ص ١٠١٠ اس ١٥ – ٢٢؛ ٢٢–٢٥ (١٩) نفس المصدر ص ١٠١٠ اس ٢٢ – ٢٥ (٢٠) نفس المصدر ص ١٠٠٨ ب س ٢٢–٢٥ ، ١٠٠٩ أ اس٥

(٢١) وهذا الاعتراض يستند الى نظرية ارسطو القائلة بان الكون قسمان كبيران : ما فوق فلك القمر وما تحته وهذان القسمان متفاوتان مقدارا وكمالا . فالقسم الثاني يخضع للتغير ولقوى الكون والفساد بينما القسم الاول (ما فوق فلك القمر) لا يخضع لهذه العوامل والقوى . ويأخذارسطو على فلاسفة التغير تعميمهم على ما فوق فلك القمر خصائص يشاهدونها في القسم الذي تحته فقط .

يرد ارسطو منشا نظرية بروتاغوراس الى معرفتنا ان مشاهداتنا وتجاربنا الحية تختلف باختلاف الافراد وبما ان الافراد يختلفون سنا وتكوينا وشعورا اصبحت الاحساسات متعددة وبالضرورة متعارضة ، بذلك تبطل الحقيقة المطلقة لتحل محلها حقائق متعددة بتعددالاشخاص وتعدد حالات الشخص الواحد (٢٢) يعتبر ارسطو هذه النظرية خاطئة من اساسها لانها لا تميز بين المشاهدة الحسية من جهة والادراك العقلي او المعرفة اليقينية من جهة اخرى . بكلام اخر ياخذ ارسطو على هذه النظرية انها لا تعترف بمصدر للمعرفة سوى المشاهدة والتجربة الحسية .

يرد ارسطو منشا نظرية انكساغوراس الى ما اشار اليه بعض الفلاسفة من ان جميع الاضداد تتكون وتنشا من مصدر واحد وهذا المصدر يحتوي على الاضداد (بشكل ما) قبل تكونها وظهورها في الطبيعة ، (٢٣) فاذا في هذا المصدر الاساسي تمتزج الاشياء بعضها ببعض وتكونها هو تفريقها وتميزها بعضها عن بعض . يدعي ارسطو ان هذه النظرية صحيحة اذا اعتبرنا ان الشيء الواحد يمكن ان يجمع بين الاضداد بالقوة فقط وليس بالفعل ولكنه يدعي انها خاطئة اذا اعتبرنا كانكساغوراس انالشيء الواحديمكن ان يجمع بين الاضداد بالفعل وليس بالقوة فقط . (٢٤)

يرفض ارسطو ادعاء انكساغوراس بوجود طريق وسط بين السلب والايجاب في القضية المنفصلة ويشدد على ان موضع الصدق يجب ان يكون اما في القضية السالبة او القضية الموجبة (٢٥) وزيادة في الوضوح يعرف لنا الصدق والكذب، اولا الصدق : هو القول بوجود ما يوجد او عدم وجود ما لا يوجد . ثانيا الكذب : هو القول بعدم وجود ما يوجد او بوجود ما لا يوجد . (٢٦) فحينما ندعي بوجود شيء ما فان قولنا يكون اما صادقا او كاذبا ولكن حينما يدعي انكساغوراس بوجود طريق وسط بين الصدق والكذب او بين السلب والايجاب فانه لا يقول بوجود ما يوجد ولا بعدم وجود ما يوجد ولذلك قوله ليس صادقا او كاذبا وهذا البرهان كغيره من البراهين السابقة يقع في دور، لانه يشير الى النتائج الباطلة التي تؤدي اليها نظريةانكساغوراس

(٢١) ما بعد الطبيعة ١٠٠٩ اس ٣٠ – ٣٥ (٢٢) نفس المصدر ص ١٠٠٩ اس ٦ – ١٤ (٢٣) نفس المصدر ص ١٠٠٩ اس ٢٢ – ٢٦ (٢٤) انظر ٢١ (٢٥) ما بعد الطبيعة ص ١٠١١ ب س ٢ ٢– ٢٥ (٢٦) نفس المصدر ص ١٠١١ ب س ٢٥ – ٢٩ (٢٧) المعنى هنا الضرورة المنطقية .

بينما في الحقيقة هذه النتائج ليست سوى ترديد للنظرية التي يريد ارسطو ان يرد عليها .

فى برهان اخر يقدمه ارسطو ضد نظرية انكساغوراس يقول ان انواعا من الايجاب تحتوي ضمنا على احكام سالبة، فاذا قلنا مثلا ان العدد (س) مزدوج هذا القول يتضمن حكما سالبا : العدد (س) ليس مفردا . وفي راي ارسطو اذا قبلنا بادعاء انكساغوراس بوجود طريق وسط بين السلب والايجاب يجب ان نقبل بوجود نوع ثالث من الاعداد تقع بين الاعداد المفردة والمزدوجة .

بعد ان شرحنا تفسير ارسطو لقوانين الفكر ومكانتها الانطولوجية في فلسفته وبعد ان بسطنا اهم الاعتبارات والبراهين التي اوردها لدعم صحة هذه القوانين واثبات شرعيتها راينا ان براهينه فى الغالب تقع فى دور ولا تثبت ما وضعت من اجله ، فى الواقع تبرير قوانين الفكر فى فلسفة ارسطو يعتمد على منزلتها الانطولوجية لا على ما اورده من البراهين والاعتبارات السلبية .

ننتقل الان لنبحث باختصار في نظرة بعض المدارس الفلسفية لقوانين الفكر ومنزلتها الانطولوجية : تعتبر بعض المدارس الفلسفية قوانين الفكر حقائق ضرورية (٢٧) شاملة تصف وتحدد طبائع الاشياء وبنائها الموجودة منها والممكنة . بكلام آخر بالنسبة لهذه النظرة قوانين الفكر تشبه قوانين العلم من حيث انها (كقوانين العلم) تصف طبيعة وبناء الكون كما نجده وكما يدخل فى تجاربنا الحسية . وتختلف وقوانين العلم: اولا من حيث انها جوهريا تسبقها وتؤلف جزءا من مسلماتها الاولية ثانيا من حيث انها ضرورية وشاملة على الاطلاق. بمعنى آخر الاشياء باجمعها الموجودة منها والممكنة ابريوريا (٢٨) تطلعنا على قوانين الفكر وتسير بموجبها اما قوانين العلم ليست ضرورية وشاملة بهذا الشكل لانه لا يمكننا ان نجزم ابريوريا ان الكون باجمعه يسير بموجب قوانين العلم (٢٩) كما نعرفها الان ويظهر ذات السير الرتيب الذي تظهره تلك الاجزاء منه التي يدرسها العلماء . هذه النظرية ارسطوطاليسية في جوهرها لانها تعين لقوانين الفكر المنزلة الانطولوجية التي عينها لها ارسطو، اي تعتبرها مبادىء تصف اعم صفات الاشياء وتشمل خصائص الوجود . ولكن الخطا فى هذه النظرة هو انها تعتبر قوانين الفكر وصفية ــ تركيبية من جهة وتعتبرها ايضا ضرورية شاملة (اي ابريورية) من جهة اخرى ولكن اذا اردنا ان نعتبر هذه القوانين على انها تصف خصائص الاشياء لا يمكننا ان نعتبرها في ذات الحين ضرورية وشاملة ايضا وذلك لان القوانين الوصفية ــ التركيبية لا يمكن ان تكون شاملة لجميع انحاء الكون لانها تعتمد على الخبرة والتجربة الحسية وهذه محدودة الى اجزاء الكون التي تقع تحت مشاهدة العالم، وكل ما يحق لنا قوله هو ان قوانين الفكر كمبادىء وصفية ــ تركيبية تشمل تلك الاجزاء من الكون التي نعرفها مع العلم انه يجوز دائما للخبرة الحسية ان تاتينا من العلم بغير ما أتتبه حتى الان . نستخلص مما سبق انه لا يجوز اعتبار قوانين الفكر في آن واحد وصفية تركيبية من جهة وضرورية ــ شاملة من جهة اخرى وهذا ما اراد ارسطو ان يبرهنه ولذلك فشل في مسعاه .

هناك نظرية اخرى تعتبر قوانين الفكر كتعاميم علمية نصل اليها نتيجة لتجاربنا الحسية ودراستنا لخصائص الطبيعة . وافضل من عبر عن هذه النظرية هو جون ستيوارت ميل وغيره من الفلاسفة التجريبيين . وفي جوهرها ترفض هذه النظرية الادعاء الارسطوطاليسي بضرورة وشمول قوانين الفكر وتحدد المدى الذي تطبق فيه هذه القوانين، فهي كالنظرية السابقة تعتبر قوانين الفكر وصفية تركيبية ولكن جدودها هي حدود معرفتنا العلمية ولذلك تفقد هذه القوانين ضرورتها وشمولها وتصبح كاي قانون او تعميم علمي قابلة للتنقيح والتصحيح مع تقدم المعرفة الانسانية . ولكن فريقا من الرياضيين والمناطقة الوضعيين (حلقة فينا) (٣٠) لم يقتنعوا بهذا التفسير لقوانين الفكر (٣١) وعوضا من ان يعتبروها وصفية ــ تركيبية مثل ج. س. ميل ويرفضوا ضرورتها وشمولها شددوا على ضرورتها وشمولها ورفضوا صفتها الوصفية ــ التركيبية، بكلام آخر هذه النظرية تنفي قطعا ان قوانين الفكر تصف خصائص الاشياء وتعتبرها اصطلاحات واشتراطات لغوية تفرض (ولا تصف) كيفية استعمال اللغة لجعل التفاهم ممكنا ، وبالنسبة لهذه النظرية قوانين الفكر لا تصف شيئا على الاطلاق ومن الخطا تسميتها « بقوانين الفكر » (هذا اسمها التقليدي فقط) لانها لا تقول شيئا لا عن الفكر ولا عن الكون . هذا التفسير لقوانين الفكر يجعلها ضرورية شاملة لانها لا تصف شيئا ولا تعتمد على الخبرة والتجربة الحسية ولذلك لا يمكن لاي شيء في الكون واقع كان او ممكن معلوم للانسان اومجهول ان يناقضها وهذا يجعلها حقائق تحليلية غير قابلة للتنقيح والتصحيح مع تقدم معرفة الانسان وهذا ما يضفي عليها ضرورتها وشمولها .

جامعة يال ــ نيويورك　　　　صادق جلال العظم

(٢٨) a priori يستعمل البعض تعبير « قبليا او القبلية»

(٢٩) بالنسبة لهذه النظرية قوانين الفكر قضايا تركيبه ابريورية : هي تركيبه من حيث ان علمنا بها ينشا منها ويعتمد على الخبرة الحسية والمشاهدة وهي ابريورية من حيث انها ضرورية حتمية شاملة .

(٣٠) Vienna Circle

(٣١) لاسباب تتعلق بحقل الرياضيات وعلاقته بالمنطق .

يا اشقر

يا حب يا اشقر   يا كل ما اضمر
انت الذنى زفها   نحوي الشذا المسكر
فيك الرؤى فرحة   ترنو اليها الاعصر
والنجم في فلكه ...   يهواك والنير
يا حلو طاب المنى   وطاب لي المزهر
غن معي ساعة   وقم بنا نسمر
الكون في غفوة   والصبح قد يظهر

كيف انسى

علمني كيف انسى !..   اعطني في الهجر درسا
كلما وقعت لحنا   ذكر الحاضر امسا
ليت لي قلبا يجافي   ليتني مثلك حسا
ليتني انساك حتى   تنجلي الذكرى وتنسى
انا ضيعت شبابي   واضعت العمر يأسا
كلما افرغت كاسا   للأسى اترعت كأسا
خلق الهم خديني   وبدا لي الهم رمسا
بئس شوق يعتريني   يملا الارجاء بؤسا

اذكري ماضي يوما   يا اعز الناس نفسا
وانثري حبي طيبا   وانثري ذكراي شمسا
كم غزلت النور تاجا   لك والاحلام عرسا
وفرشت الدرب وردا   لتهاديك وغرسا
انا يا انس زماني   لا ارى بعدك انسا
ليس لي ناي يغني   او فؤاد ... يتاسى
واذا قلت سانسى   صاح قلبي : كيف تنسى ؟

جدة   احمد عبد الجبار

من امثال اللبنانيين في العمر

بقلم شفيق طباره



العمر او العمر الطويل فى اعتقاد اللبنانيين بركة ونعمة يغدقهما الله على من اصطفى من عباده ويستشهدون على ذلك بما جاء في التوراة سفر الخروج اصحاح ٢٠ عدد ١٢ (اكرم اباك وامك ليطول عمرك) وبقولهم فى الدعاء (الله يطول عمرك) . ولا شك ان الحياة الطويلة نعمة وبركة حينما تصحبها سلامة العقل والجسم ولذلك مدح العوام الشيخوخة فقالوا (الشيب ما هو عيب العيب على اللي بيعمل العيب) وقديما قالت العرب فى امثالها (الشيب وقار) وقالت ايضا (لكل قديم حرمة) .

وفضلا عن ذلك فاللبنانيون يكنون الاحترام لكبار السن ويحيطونهم بالحرمة والمهابة وقد جروا فى ذلك على هدى تعاليم الشرق القديمة . قال ازدشير لابنه : « يا بني : وقر الشيوخ فهم مواطن الوقار ومعادن الاثار ورواة الاخبار وحفظة الاسرار اذا رأوك فى قبيح او جميل ساعدوك » . وخطب زياد بن ابي سفيان فقال : « استوصوا بثلاثة منكم خيرا . الشريف والعالم والشيخ فوالله لا يأتيني شيخ بشاب قد استخف به الا اوجعته ، ولا يأتيني عالم بجاهل استخف به الا نكلت به ، ولا يأتيني شريف بوضيع استخف به الا انتقمت منه » .

ومن دلائل احترام اللبنانيين لكبار السن الوقوف لهم وتقبيل ايديهم وعدم التدخين او اجتناب شرب الخمر بحضورهم . وهذا كما روى عن ايوب النبي فى سفره ص ٢٩ عدد ٨ : (وعاد ايوب ينطق بالأمثال فقال يا ليتني كما فى الشهور السالفة حين كان يراني الغلمان فيختبئون والشيوخ يقومون ويقفون) اما احتجاب الاولاد فهو كذلك من عادات اللبنانيين حيث نجد الكثيرين بيننا فى هذا العصر يقصون اولادهم عن مجالس سمرهم ولا يشركون الصغار فى مجالس الكبار وذلك على نقيض ما يفعله اهل الغرب في اوساطهم الاجتماعية .

ويقولون للغر الموصوف بالجهل وقلة التجارب (الولد ولد ولو حكم بلد) وكثيرا ما يطلق العوام كلمة ولد على رجل انعدمت فيه الرزانة والحكمة . وقد روى عن الحسن انه قال : لما حضرت قيس بن عاصم الوفاة دعا بنيه فقال : يا بني احفظوا عني فلا انصح لكم مني اذا مت فسودوا كباركم ولا تسودوا صغاركم فيسفه الناس كباركم وتهنوا عليهم .

ويقولون فى ما اشتهر عن كبير السن من الدهاء في الامور (اللي ما عنده كبير يقتني له كبير) وقريب من هذا قولهم (اكبر منك بيوم اعلم منك بسنة) و (الرجل الكبير كيفما حكي صدقوا) وشبيه هذا المعنى ما قالته العرب فى امثالها (الشباب جنون برؤه الكبر) و (طول التجارب زيادة فى العقل) و (الشباب مطية الجهل) رواه الميداني. وقال علي بن ابي طالب (الشباب شعبة من الجنون) وقال بعض الحكماء (الشيوخ اشجار الوقار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم فهم . وعليكم باراء الشيوخ فانهم ان عدموا ذكاء الطبع فقد أفادتهم الايام حيلة وتجربة) .

ويقولون للرجل المحنك (مقلع ناباته) ويقولون فى مسن ماجن خليع يسلك مسلك العابثين رغم تقدمه فى العمر (شاب وما تاب) وهذا مثل قولهم (الكبير بلا وقار مثل المرا بلا عزار) و (الكبير اذا اندلع مثل الباب اذا انخلع) و (كل ما شاب كل ما عاب) و (من شب على شيء شاب عليه) و (كلما شاب شعرو حمي قعرو) وقعرو اي قفاه فى لغة العامة وذلك لطول قعوده . و (جهل الستين ماله دين) و (نار الحدة من قرامي العتق) ونار الحدة اي النار الموقدة وقرامي العتق اي الاغصان القديمة اليابسة التي تستعمل للوقود .

ويقولون فى الحض على طلب العلم فى الصغر وتغذية العقل بالمعرفة (اللي ما بيتعلم فى الصغر ما بيتقدم فى الكبر) وهذا مثل قولهم (العلم فى الصغر كالنقش فى الحجر)وقال الجاحظ : سمع الاحنف رجلا يقول التعليم فى الصغر كالنقش فى الحجر . وفي امثال العرب (من لا يتعلم فى صغره لم يتقدم فى كبره) و (اطلبوا العلم من المهد الى اللحد) و (لا فقر اشد من الجهل) وجاء فى الحديث (اطلبوا العلم ولو فى الصين) وكذلك (تعلموا العلم فان تعلمه حسنة ودراسته تسبيح والبحث عنه جهاد وطلبه عبادة وتعليمه صدقة) و (يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل احدهما عن الاخر) و (لغدوة فى طلب العلم احب الى الله من ماية غزوة) و (هلاك امتي فى شيئين ترك العلم وجمع المال) وقال الامام علي (اقل الناس قيمة اقلهم علما) وقيل لعمرو بن العلاء : هل يحسن بالشيخ ان يتعلم . قال: ان كان يحسن به ان يعيش فانه يحسن به أن يتعلم فالتعليم اذن هو الحياة عينها ومن تخلف فى مواكبته لها فقد تخلف عن ركبها . وقال نعمان لابنه : يا بني جالس العلماء واصغ اليهم بسمعك وقلبك فان القلب يحيا بنور العلم كما تحيا الارض الميتة بمطر السماء . وقيل من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار . وقال بعض العلماء : العلماء قناديل الازمنة وكل عالم قنديل زمانه يستضيء به اهل عصره. وقال الجاحظ « العلم بصر والجهل عمى والبيان من نتاج العلم والعمى من نتاج الجهل » . ومما يدل على شغف العرب وكلفهم وشدة حبهم للفهم والافهام قولهم لابن عباس : انى لك هذا العلم ؟ قال : قلب عقول ولسان سؤول . وقال شاعرهم :

اذا مر بي يوم ولم اتخذ يـدا ... ولم استفد علما فما ذاك من عمري

ويستهزىء اللبنانيون بمن تخطى عتبة الشباب وفاتته فرصة التعليم فى الصغر فيقولون (بعد ما كبر وشاب ودوه الكتاب) وفى هذا المعنى قال الشاعر :

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت ... ولن تلين اذا قومتها الخشب

ويقولون للمسن الخرف (السبع متى شاب بيصير مضحكة للكلاب) و (ابن الستين للسكين وابن السبعين طحير وعنين) طحير وعنين اي يعتريه السعال ويئن من كثرة الاوجاع التي تنتابه . الطحير السعال والعنين الانين و (بنت العشرة لوزة مقشرة وبنت العشرين زهرة البساتين وبنت الثلاثين ام البنات والبنين وبنت الاربعين ابرد من الاربعين وبنت الخمسين عجوز فى الغابرين وبنت الستين للسكين) وقالت العرب (ما بين الستين والسبعين دقاقة الرقاب) ودقاقة الرقاب اي المنية و (اذا هرم البازي لعبت فيه العصافير) و (متى شاخ السبع صار مضحكة للكلاب) رواهما الميداني .

ويقولون لمن طال عمره (قبر محادل السطوح). والمحادل جمع محدلة وهي حجر من الصخر مخروط الشكل يثقب وسطه ويجعل فيه حديد يستعمله القرويون لدلك سطوح منازلهم منعا لتسرب ماء المطر الى داخلها . والعامة تقول (حدل السطح) اي دلكه بمرور المحدلة . وهذا كقول العرب (اكل عليه الدهر وشرب) ويريدون اكل وشرب دهرا طويلا قال شاعرهم :

كم راينا من اناس قبلنا ... شرب الدهر عليهم واكل

ويقولون (قابل بشب وقاتل باختيار) ويعنون بكلمة الاختيار المتقدم فى السن ومعنى المثل ان كنت مقابلة احد الناس فاصطحب شابا وان كنت تريد القتال فاصطحب الكهل لانه عرف باصالة الراي والدهاء والحزم والتفكير فى الامور وهذه من الصفات التي يتطلبها القتال .

ويقولون فى النهي عن مغالبة الاحداث لما فى ذلك من مهانة (عمرك لا تغالب ولد صغير ان غلبك بيضحك وان غلبته يبكي) .

ويقولون لمن ينازع من هو اصغر منه واضعف (لو كنت من جيلك كنت بنيمك على حيلك) ونيمه على حيلة اي طرحه ارضا .

ويقولون (الصغير بيمشي على قدم الكبير) ويعنون ان الصغير ينسج على منوال الكبير ويقتبس اخلاقه . وهذا مثل قولهم (صغيرهم بدق توم كبيرهم كيف بدو يكون) و (ادب الكبير بيتادب الصغير) ويقولون (تلم الاعوج من التور الكبير) والتلم ما تشقه سكة الفلاح في الارض . وهذا مثل من امثال المزارعين لان من عادتهم عند فلاحة الارض ان يربطوا العجل الصغير بجانب الثور الكبير ليتدرب على جر المحراث فاذا جاء التلم اعوجا غير مفلوح فلاحة جيدة ينسبون ذلك الخطأ الى الكبير .

ويقولون (كبير القوم خادمهم) ويروى (سيد القوم خادمهم) ويراد بكلمة كبير ههنا السيد او كبير قوم او شريفهم . وفى القاموس : كبر الشيء جعله كبيرا واكبره عظم عنده وتكابر ايضا ارى من نفسه انه كبير القدر والسن والكابر الكبير والخطير الشأن ويقال توارثوا المجد كابرا عن كابر اي كبيرا شريفا عن كبير شريف . وروي عن عمر بن الخطاب ان قدم عليه وجوه قبيلة من قبائل البادية وشكوا اليه شاعرا تعرض لرئيسهم فهجاه فى اشعاره فسالهم عن ما قاله الشاعر فقالوا له ان من عادة رئيسنا ان يحتلب اللبن ويسقي اتباعه فقال عمر : لا ارى فى ذلك اية مذمة فسيد القوم خادمهم وذهب قوله مثلا . ويضرب فى مدح زعيم قوم يقوم بخدمة اتباعه . وقال لقمان لابنه : اربع لا ينبغي لاحد ان يانف منهن وان كان شريفا او اميرا قيامه من مجلسه لابيه وخدمته لضيفه وقيامه على فرسه وخدمته للعالم . وكانت العرب تقول (سيد القوم اشقاهم) لانه يمارس الشدائد دون العشيرة رواه الميداني .

ويقولون (انا كبير وانت كبير ومين يسوق الحمير) ومنهم من يقول (انا امير وانت امير ومين يسوق الحمير) ويعنون اذا كان كل منا يتصدر للرئاسة فمن يقوم بالاعمال الاخرى ويضرب لمن يتصدر للرئاسة فى غير حينها . والامير لقب اطلق اول ما اطلق فى عصر الهجرة على عمر بن الخطاب ومن عقبه من الخلفاء . ثم اطلق فى العصر الايوبي والمماليك على قائد الجيش ثم لقب به سلاطين بني عثمان واحتفظ هذا اللقب فى لبنان ويطلق فى وقتنا الحاضر على من كان من اصل شريف وان لم يكن صاحب امر .

ويقولون لمن طلب شيئا وقد فاته وذهب وقته (يا طلبة اللي ما بتستجاب الاختيارية يرجعوا شباب)

ويقولون (خذوا اسرارهم من صغارهم) اي ان السر كثيرا ما يفشيه الاولاد ويضرب للسر اذا انكشف على يد الصغار وقيل لاحد العوام : كيف كتمانك للسر قال : انا بئره الغميق ! ويقولون (القلب ما بيشيب) اي ان تذكارات الشباب لا تمحى .

ويقولون (اللي بيعرفك صغير ما بيعتبرك كبير) اي ان الناس موكولون بتعظيم الغريب وتوقيره . وهذا مثل قولهم (خوري البيت مش كل ساعة بيبوسوا ايدو او (مغني الحي لا يطرب) ويذكرنا هذا القول بما جاء فى امثال العرب (اجرا الناس على الاسد اكثرهم له رؤية) رواه الميداني.

ويقولون فى الشيء يصير الى شبهه وفي المتساوين والمتقاربين فى العمر وغيره (كل جيل مع جيله بيلعب) وهذا مثل قولهم (اللي مثلنا تعا لعندنا) و (شبيه الشكل منجذب اليه) و (كل مين بيهوى على شكله) و (من شكلو شكشكلو) و (كل عنزه بتلحق تطيعها) و (ان الطيور على اشكالها تقع) ومن امثال العرب (ان الطيور على الاتها تقع) و (وافق شن طبقة) واصل المثل ان داهية منهم يسمى شنا كان يطلب امراة توافقه وطوف البلاد حتى عثر بمن هي على شاكلته واسمها طبقة فتزوجها

ثم عاد الى قومه فلما راوا ما فيها من دهاء قالوا : وافق شن طبقة .

ويقولون (فلان عطاك عمره) اي مات . وهذا مثل قولهم (خلصوا زيتاتو) و (لاقى وجه ربه) و (طلعت روحه) و (ارتاح) اي ادخله الله في الراحة . وقالت العرب (طوى الله عمره) ويقولون لمن يسبق غيره في الابانة عما يخالج نفسه من الاغراض (عمرك اطول من عمري) . ويقولون لمن طال الزمن على وفاته (شبع موت) ويقولون على سبيل المزاح (شخ على البلانة) وذلك ان الجرو يرفع احد رجليه ويبول على البلانة ويتدارى في عمله حتى لا يؤذي نفسه بالشوك . فجعلوا عادة الجرو مثلا لولد بلغ سن الرشد ويقولون لغلام لم يجرب الامور ولم يعرفها (حليب امه على تمه)

ويقولون لشيخ متهتك ذهب رونق امره (بعد هالكبرة جبة حمرا) والجبة زداء خارجي يلبس فوق الثياب وقديما كانوا يلبسون المحكوم عليه جبة حمراء للشماتة به والسخرية منه كما فعل اليهود بالسيد المسيح ففي الكتاب المقدس سفر مرقص اصحاح ١٥ عدد ١٧ نقرا (والبسوه ارجوانا وضفروا اكليلا من شوك وضموه عليه) وقريب من هذا المثل قولهم (لبس الابيض اسود وتفرج عليه وليس الاسود احمر واضحك عليه)

ويقولون في اعتبار الحاضر والأخذ به وعدم الاعتماد على الماضي او المستقبل (لحنا ولاد هالوقت)

ويقولون (مناشير العمر) ويكنون بهذه العبارة السلالم . اول من قال ذلك رضى الدين الرحبي الطبيب وكان يعيش فى مصر منذ نحو من ثمانماية سنة . وقد كان طويل العمر لم توافه منيته الا بعد ان اتم مابة من الاعوام . ومما يؤثر عنه انه كان معنيا بحفظ صحته يلتزم فى سائر ايامه اشياء لا يخل بها ابدا ومنها انه كان يتوخى الا يصعد فى سلم فاذا كان له مريض يفتقده لم يذهب اليه الا اذا كان في موضع لا يتطلب صعودا وكان يصف السلالم بانها (مناشير العمر) وقد قال لابنه يوما : انني منذ اشتريت هذه الدار التي انا ساكن فيها قبل خمس وعشرين سنة ما عرفت اني تركت القاعة وصعدت الى الحجرة التي فوقها الا يوم استعرضت الدار واشتريتها وكان ذلك اخر عهدي بتلك الحجرة الى يومي هذا .

ويقولون للسخرية من رجل يخطىء في الحساب جهلا او تجاهلا (جحا اكبر او ابوه) اصل المثل فيما يقال ان جحا قال لوالده يوما اني اذكر يوم ميلادك يا ابتي . فانتهرته امه فقال لها والده : لا تؤنبيه فلعله يذكر يوم ميلادك . فقالت له : جحا اكبر او ابوه فذهب قولها مثلا .

ويقولون في الصفح والاحتمال وعند اصلاح ذات البين (الوعا الكبير بيساع الصغير) ويضرب هذا المثل لاكبر المتخاصمين سنا ويعنون ان على الرجل المسن الناضج ان يسامح الغر لسبب نزقه وجهله عن ادراك الحقائق . وهذا قريب من قولهم (السن الوحق) ويضرب في الحذق والمهارة وفي التجارب التي يكتسبها المرء مع السنين .

ومن امثال المزارعين (عيشني للبيدر وسميني حيدر) اي دعني اعيش بما عندي من المؤن الى موسم ذراية القمح وعندئذ تكثر غلتي واصبح ثريا كالامير حيدر ابي اللمع (١٧٠٦ – ١٧٣٠) وقيل انه نعم بثروة عامرة وجاه عريض .

والبيدر موضع يجمع فيه الحصيد ويداس بواسطة النورج والنورج عبارة عن لوحة من الخشب اثبت باسفلها مسامير كبيرة يجرها حصان او زوج بقر ويقودها ولد وهو واقف فوق اللوحة ويسيرها حول البيدر فينزع القمح من السنابل ويذري بعدئذ القش ثم يغربل القمح لتنقيته مما قد اختلط به من حصى وتراب وزؤان . والكلمة من العبرية المورج وكان معروفا ومستعملا في الازمنة القديمة يدلنا على ذلك ما جاء في سفر اشعيا اصحاح ٤١ عدد ١٥ (ها انذا قد جعلتك نورجا محددا جديدا ذا اسنان تدرس الجبال وتسحقها وتجعل الاكام كالعاصفة تذريها فالريح تحملها والعواصف تبددها وانت تبتهج بالرب)وهذه الواسطة البدائية لنزع القمح من السنابل ما زالت تستعمل فى لبنان بالرغم من الالات الحديثة .

وقد كثرت امثال العوام في البيدر ومنها قولهم (شرطا بالحقله ولا خناقة على البيدر) ويضرب لحفظ الشرط بين الاخوان تجنبا للخلافات اي يجب ان تتموا الشروط قبل الحصاد حتى لا تتعرضوا الى الاختلافات عند ذراية القمح وتقسيم الغلال . وهذا مثل قولهم (اللي اوله شرط اخرته سلامه) و (بعد الشرط ما في مرط) والمرط الكذب في لغة العوام . و (شرط مبلق من هلق) والمبلق من الفصحى اي السريع وهلق اي الان . وشبيه هذا المعنى ما جاء في امثال العرب (الشرط سيد الاحكام) ومن امثال العوام (كبر البيدر ولا شماتة الاعداء) اي تظاهر بالكثرة والبحبوحة وان كان موسمك عاطلا حتى لا يشمت بك الاعداء لان الاعتقاد الشائع عند اكثر العامة ان كبر البيدر دليل على جودة الموسم والبحبوحة . وهذا مثل قولهم (ان رحت على دور الكبار امشي هرولة) والكبار هنا كبار القوم والهرولة في اللغة الاسراع وهو بين العدو والمشي اما ههنا فيراد بالكلمة التبختر في المشي . وقولهم (حساب البيدر ما طابق حساب الحقل) اي ان النهاية لم تطابق على البداية ولا النتيجة على العمل . ويضرب في موضع قولهم (حساب القرايا ما طابق حساب السرايا) حساب القرايا ما يجبى من القرى وقولهم (عصفور دوري على بيدر) للتافه اليسير ومثله قولهم (برغشة على جميزة) وروى الابشيهي في المستطرف ان ناموسة باتت على شجرة ولما اصبحت قالت لها بخاطرك قالت لها وانت كنت على اي ورقة ... و (وجردون ما خرب مطحنة) وقولهم (نفختو بتذري بيدر) ويضرب لرجل كثير الهموم

ويطاق الزفرات كان زفرته هواء يحب على البيدر فيساعد على ذراية القمح وذرى الحنطة نقاها في الريح . وقولهم (لا تحسب بيدرك قبل ما تستغله) ويضرب عند الشك في نيل شيء قبل حدوثه وقولهم (البيدر اللي مالك فيه لا تغبر دقنك فيه) اي لا تشغل نفسك بشؤون غيرك او بما لا يعود عليك بفائدة . وقالت العرب (شهر ليس لك فيه رزق لا تعد ايامه) رواه الميداني . وقولهم (الهواء عند الدراية والمي عند السقاية والقرش عند الجباية) وهذا مثل من امثال المزارعين ويعنون على المرء ان لا يحسب هذه الاشياء الا بعد الحصول عليها .

ويقولون (الكبر عبر) وعبر فعل مبني على الفتح من عبر النهر قطعه وجازه من هذا العبر الى ذلك العبر المهيأ للعبور . ويضرب المثل التدليل على ادبار الشباب وحلول الشيخوخة وللشكاية والتحسر على ما مضى من العمر . وفي ذلك قالت العرب (الشيب علة لا يعاد فيها ومصيبة لا يعزى عليها) و (من بلغ السبعين اشتكى من غير علة) رواهما الميداني . و (الشيب بشير الكبر وبريد الموت) و (شيئان لا يقدرهما الناس الا بعد زوالهما : الصحة والشباب) و (كل شيء يعوض ما عدا الشيخوخة) وفي ذلك قال ابو بكر بن عبد الملك بن قزمان الشاعر الاندلسي :

نمرت اليوم منحنيا كأني انقش في التراب على شبابي

واخذ شكري غانم اللبناني هذا المعنى بعينه في روايته (عنتره) التي مثلت على مسرح الاوديون بباريس سنة ١٩١٠ فقال ما ترجمته عن الفرنسية .

الراعي لزبير : لم تنحني هكذا ايها العجوز اتراك تنقش في التراب عن ذهب تفقده

زبير للراعي : كلا اني انقش عن شي اغلى من الذهب . نقديما على درب الحياة فقدت ايام شبابي جات لمنة انفرطت من مسبحة عمري ...

وفي ذلك قال ابو العتاهية :

عريت من الشباب وكنت غضا كما يعرى من الورق القضيب
الا ليت الشباب يعود يوما فاخبره بما صنع المشيب

ويقولون في مدح مشاورة كبير السن (شاور اكبر منك واصغر منك وارجع لعقلك) وهذا مثل قولهم (شاور الف وخالف الف وارجع لعقلك) و (شور من اهل الشور بيسوى قبيلة) و (كثر السؤال وقلل الجولان) اي خير لك ان تستوضح من السابلة عن الطريق من أن تتيه فيه . وقال الله تبارك وتعالى لنبيه الكريم (وشاورهم فى الامر) وقالت العرب في مدح المشاورة (اذا شاورت العاقل صار عقله لك) و (اذا صدى الراي صقلته المشورة) و (العلم خزائن ومفتاحها السؤال) و (شاور فى امرك الذين يخشون الله) و (ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا افتقر من اقتصد) و (اجعل سرك لواحد ومشورتك الى الف) و (المشاورة حصن من الندامة وامن من الملامة) و (نصف رايك مع اخيك فاستشره ليكتمل رايك) و (من شاور عاقلا اصبح نصف عاقل) و (الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استبد برايه) و (علم الجاهل واسمع العالم فانك تعلم ما تجهله وتتذكر ما تعلمه) و (لا تستشيروا واحدا لا يكون في بيته دقيق فان عقله زائل) وفي الحديث (لقحوا عقلكم بالمذاكرة واستعينوا على اموركم بالمشاورة) و (لن يهلك امرؤ بعد مشورة) و (المستشار مؤتمن) و (المستشار بالخيار ان شاء قال وان شاء امسك) وكان بنو عامر يقولون (لا تستشيروا معلما ولا راعي غنم ولا كثير التعود مع النساء) وقال الحسن (الناس ثلاثة فرجل رجل ورجل نصف رجل ورجل لا رجل فاما الرجل الرجل فذو الراي والمشورة واما الرجل الذي هو نصف رجل فالذي له راي ولا يشاور واما الرجل الذي ليس رجل فالذي ليس له راي ولا يشاور) و (حسن السؤال نصف العلم) وقال الامام علي (من استبد برايه هلك ومن شاور الرجال شاركها فى عقولها) و (علمان خير من علم) واصله ان رجلا وابنه سلكا طريقا فقال الرجل يا بني استبحث لنا عن

الطريق فقال اني عالم فقال : يا بني علمان خير من علم . وذكروا ان الروم والفرس اختلفوا فى المشورة . فتفاخر اثنان من اتباعهما فقال الفارسي : نحن قوم لا نعطي الملك لمن يحتاج الى المشورة فقال له الرومي : اما نحن فلا نعطي الملك لمن لا يشاور . وقيل لرجل من عبس بما اكثر صوابكم فقال نحن الفا رجل وفينا حازم واحد فنحن نشاوره فكاننا الفا حازم . وقال عبدالله بن الحسن خطيب بني هاشم لابنه : احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر مشورة العاقل اذا كان غاشا يوشك ان يورطاك بمشورتهما فيسبق اليك مكر العاقل وغرارة الجاهل .

ويقولون (قوة الشباب بعقول الشيوخ) ويعنون ان لكل جيل مزاياه فللشباب القوة وللشيوخ الحكمة والخبرة. ويقولون لمن يسعى فى اصلاح ذات البين بين صبيان او جهال (قاضي الولاد شنق نفسه) وذلك حتى لا يتعب نفسه بلا طائل . ويقولون (عمر الشقي بقي) اي انه كثيرا ما ينال القدر من الرجل الصالح ويعفي عن الشقي لحكمة لا تدركها عقول البشر .

ويقولون (مثل حنبلاس الشامي كل ما كبر حلي) ويضرب لمن كبر سنا وظل ينعم بنضارة الشباب والحنبلاس عند العامة حب الاس . والاس شجر يعرف بالريحان وهو نبات طيب الرائحة من انواع المشموم . وكان الرومان يقدمونه الى الهة الحب (فينوس) وكان رمز النصر عند الاغريق فكانوا يعقدون من اغصانه اكاليل يضعونها على رؤوس ابطالهم المنتصرين . وذكر الجاحظ عن ابن عباس ان عصا موسى كانت من آس الجنة . وانها كانت من العود الذي فى وسط الورقة وكان طولها طول موسى . وقد كانت لا تفارق يده فى مقاماته ولا صلواته ورؤى ميتا وهو معتمد عليها . واشتهرت عصا موسى كما اشتهر خاتم سليمان والاس عند اللبنانيين رمز الصداقة الدائمة ويستعمل عوامهم اغصانه لتزيين قبور موتاهم رمزا للاحترام الدائم للراحلين ويقال ان تزيين القبور باغصان الاس عادة قديمة عند العرب وقد نسبها بعضهم الى الحادثة التالية : حكى ان النبي مر بقبرين فشعر ان صاحبيهما يتعذبان فتناول طاقة من الاس وشقها نصفين فوضع نصفها على القبر الذي عن يمينه ونصفها على القبر الذي عن شماله ثم قال : ارجو ان يخفف الله عنهما العذاب . واتخذ العرب هذا التقليد منذ ذاك . وذكر بعض المفسرين ان اغصان الاس التي تظل خضراء تحوي سرا عجائبيا لراحة الانفس . وجاء فى التلمود ان بني اسرائيل كانوا يعتقدون ان من يحلم بغصن آس فان اشغاله ستنجح واوضح احد الشعراء عهد الصداقة الدائمة فى شعره فقال :

ليس للنرجس عهد ... انما العهد لآس
لعد النرجس عهدا ... ويبقى العهد لآس

ويقولون (عيش كثير بتشوف كثير) ويعنون ان حياة الانسان سلسلة من الحوادث والتجارب التي لا تنقطع وقريب من هذا قولهم (مش من خبرته لكن شيء مر على رقبته) ويقولون (طلعت دقن ابنك بل واحلق دقنك) ويضع العوام كلمة الدقن فى موضع اللحية . ويضرب المثل على سبيل المزاح لتذكير الوالد ان عمره قد مال وان زمن الاستراحة من معاناة الاعمال قد اذن فيجب ان يسلم مقاليد اموره لولده الذي ترعرع وكمل عقله واصبح اهلا للعب دوره فى الحياة وتسلم مهمات الامور . وقريب من هذا قولهم (زمر بنيك) ويريدون انه ترعرع وصار يحسن اللعب بالمزمار ويقولون (اللي مكتوب له عمر ما بتقتله شدة) ويضرب مثلا للاجل المحدود وهذا مثل قولهم (عمر اعطيني وبالبحر ارميني) و (المكتوب ما منو مهروب) و (نحنا بالتفكير والله بالتدبير) و (لا تقعد عا وكر الدبابير ولا تقول يا رب التقادير) و (لا تحط ابنك على الحيطان ولا تقول طرائف الشيطان) و (سيجوا حيطانكم لئلا تقع اولادكم وتقولوا امر الله) و (الله بيقول قوم يا عبدي حتى قوم معك ما بقول نام يا عبدي حتى اعطيك تاكل) وقال تعالى فى كتابه الكريم (لكل اجل كتاب) و (اذا جاء اجلهم لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون) وقال الشاعر :

قسبد قسم الموت فى العباد فما يقدر خلف يزيد فى عمره

وهذه الامثال منبثقة من الايمان بالقدر . ويردد اللبنانيون ازاء ما يشاهدون من الغرائب فى تصرف الاقدار قولهم (اللهم لا اعتراض على حكمك) وقد كد ائمة الاديان والحكماء وعلماء الكلام والباحثون جميعا اذهانهم ليتقروا مدى ما هو مضروب على الانسان من جبرية وما هو متروك له من حرية ونشا عن ذلك مسالة (الجبرية والقدرية) .

على ان بعض العوام يفسر فكرة الايمان بالقدر تفسيرا خاطئا فليس معنى الفكرة ان يستلقي احدنا على ظهره وينتظر ان ينزل عليه رزقه من السماء فان السماء كما قال عمر بن العاص لا تمطر ذهبا ولا فضة بل ان نعمل للدنيا كاننا نعيش فيها ابدا .

وقيل : حل وباء الطاعون بدمشق على عهد عمر فامر عساكره باخلاء المدينة فساله احد اتباعه : ـ هل هذا هربا من القضاء يا امير المؤمنين ؟ فقال عمر : اي والله نحن نهرب من القضاء الى القضاء ... اي انه يهرب من الموت المقدر بسبب الوباء المنتشر فى انتظار الاجل المحتوم ...

وقيل ان رجلا دخل على الرسول بعد ان ترك ناقته على باب المسجد فلما خرج لم يجدها فرجع وقال : يا رسول الله ناقتي تركتها وتوكلت على الله فضلت . فقال النبي : اعقلها وتوكل ...

شفيق طبارة

بحـــيرة بـولـون

عين بمكتحل تشي ، واصبـــع … تومـــي اليـك ومهجـة تتطلـــع
عطفت عليك سرائر من صبـوة … وهفـت اليـك من الشوق الاضلع
لك في الضمائر معبد صلواتـه … علبـت بكـل فم وعين تدمـع
والحب ان بلغ النهاية شوطـه … طهـرت مـوارده وطـاب المشرع
واذا سما المشتاق في اشواقـه … بلـغ العبـادة قلبـه المتـضرع
طابت مواردك العذاب وقدست … احواضها مما سقتهـا الادمـع
مـن كل صدر في مياهك خفقة … زسمت واحلام تفـيء وتسطـع
ومـن الثغور حكايـة لا تنتهـي … تتلـى علـى كر العصور وتسمع

حجت شواطئك القلـوب واقبلت … تسعى على شغف اليـك وتسرع
والاك ركـب العاشقين يحثهـم … شوق بمعتلج الكآبـة مهطـع
نظمت صفوف الوافدين عبادة … للحسـن تجذبهـم اليـك وتدفـع
تحكي الجموع على حياضك عكفا … سرب الفـراش على اللظى يتجمع
فمتيم ورد الحياض ليستقـي … والجفـن مـن دمع الصبابة مترع
ومدلـه افضى بمـا املاءه … اخفت وما كتـم الفـؤاد الموجع
فـي كل منعطف لديك حكايـة … مـن مقلـة وحشاشـة تتقطـع
وبكـل زاويـة لصـاغ قصيـدة … للحـب كانت من شـذا تتضـوع

للريـح مـن شوق اليك وصبـوة … قيثـارة اوتارهـا تتـضرع
غنتـك اوجاع الحياة قصائـدا … فبكـى الشـوق لها وحن المولع
والشعـر اعذبـه الـذي نغماتـه … سالت لها مقـل الصبابـة تهمـع
واخـال موجك حيـن تزحمه الصبا … قطـع الغمام تلاطمت تتصدع
وزوارق العشاق فـي خطراتهـا … كاهلـة خلـف الغمائم تلمـع
نشرت جناحي جارح مزهـوة … وجرت تصفـق في الخليج وترتع
والريـح مـن شغف على اقدامها … عطفـت تقبلهـا وناءت تركـع
ولكـل مجذاف يـد مبسوطـة … للمـاء تحضنـه وقلـب طيـع

والفيـت حوضك والاصيـل كمقلة … راحـت باحـلام تغط وتهجـع
والصمت ران علـى الفضاء بكلكل … اذ اومـات لليـل عنـدلا اصبع
فحـرت عـن فتن لديك ولم يعد … سر يصـان عـن العيـون ويمنـع
وتعـرت الاجسام عـن اسلابهـا … فيـد تمد وخافـق يتسكـع
والعطر فـواح بحوضك عرفـه … سكـر النسيـم بـه وطاش المضجع
كـل تعرى كاشفـا لـك سره … بلسـان مدمعـه الـذي يتشفـع
وارى النسيم ابـان عـن اسراره … فيمـا اليـك مـن الخمائل يرفـع
ورايـت سرلا مثـل غيـب مغلقـا … ضاق الحليـم بـه وطـاش الاروع

اقبلت استجلي الحقيقـة قارئـا … عبـر الحيـاة وسائـلا اتطلـع
فلمحت فـي صفحات مائك صفحة … مـن سيـرة عجـب طواهـا البلقـع
ورايـت للماضين دونـك موكبـا … اعلامـه فـي كـل افـق ترفـع
وجحافـل للغابريـن تطلعـت … تومـي بمختضب البنـان وتـسرع
للـه صمتك لـم يـدع ليتـم … قـولا يفيـد ولا بيانـا ينفـع
اوحيـت بالصمت العميق لخاطري … غـررا كمأتلـق الكواكب تسطـع
وحكيت عنـك وقـد صمـت روائعا … كـم معجـز اوحـاه صمـت موجـع

دمشـــق … عدنـان مـردم بـك

شـــــال جدتي

لكيفـــارت ترجمة شاتـو شاتويـان

⊙

قبل اشهر خلت، ظهر ديوان شعر باللغة الارمنية فى بيروت تحت عنوان سانفونية لبنان « الاغاني المنسجمة » وباسم هـ . كيفارت .

وهـ . كيفارت هو الدكتور هارتيون كازنجيان، وهو معروف فى الاوساط الادبية الارمنية فى لبنان ، كشاعر ناشىء موهوب وقصصي مجيد ومحرر قدير وهو فيالعقد الثالث من عمره .

تضم سانفونية لبنان بين دفتيها، سبع عشرة قصيدة وهي مطبوعة طبعة انيقة ومزينة ببعض اللويحات الفنية للفنانة صونيا هريس، وعلى غلافها لوحة تمثل قريةلبنانية هادئة ، رابضة فوق اذيال صنين الدهري يظللها الصنوبر الحنـون .

مواضيع ديوان كيفارت ، ان لم نقل كلها فمعظمها مستوحاة من مناظر لبنان الطبيعية الخلابة التي ابصرها مع النور وترعرع بينها :

الماء والصخر، عين الغزالة العذبة، الكوخ المنفرد، اغنية القصر، الجسر الهاوي، الغروب والضباب ...

كيفارت معبر دقيق عن لسان حال الطبيعة :

فالجسر القديم القديم ، المقطوع الكمر ، يندب انقطاع مرور الاحبة وعين الغزالة : « ان هذه الفتاة تروي ظماها اليوم من مياهي العذبة وغدا ستروي ظما الراعي طارق بابها » . والغيوم البيض المتراكمة فوق بعضها : « نحن انفاس الصلوات الصامتة ونشيد ذكرى الاحبة » .

لقد سبق لنا ان قدمنا ترجمة قصيدة من سانفونية لبنان « الجسر الهاوي » الى ادباء « الاديب » الغراء فى عدد يونيو ١٩٥٨ باسم كارنيك كازانجيان وهو خطا سهوي ، فالمعذرة من صاحب الديوان هارتيون كازنجيان ومن القراء الكرام . ولدى مراجعتها يفهم الاديب قيمة الشاعر وشعره .

قلنا ان كيفارت معروف كذلك كقاص مجيد ، وقد نشر، قبل ديوانه « سانفونية لبنان » الشعري ، مجموعة من القصص والصور الحية ابطالها واقعيون ومعروفون لديه . ومن عناوينها : « لا تقولي لاحد ، اليمين المحنث ، العمة فوندخ وشال جدتي » .

ان فن كيفارت القصصي لا يقل قيمة عن فنهالشعري، فهو بارع فى انتخاب ابطاله وتحليل نفسيتهم ، كما هي الحالة فى قصة رئيس الجمعية الخيرية والعبد الاسود .

وبهذه المناسبة المزدوجة : مناسبة هذا المقال ومناسبة فصل الشتاء ، نقدم لادباء مجلة الاديب الزاهرة ، هذه الصورة : « شال جدتي » اذ لكل انسان جدة ولكل جدة شال ...

شـــال جـدتـي

هناك ، فى احدى زوايا الغرفة ، لا يزال بعد ، حليف جدتي الحميم ، حاميها الامين ، مخفف الامها ، ورصيفها فى حظها : الشال الصوفي الواسع ، بشراريبه الهزيلة ، الواهي ، وذو اللون الاسود والبقع الرمادية ، معلقا على الحائط ، منفرداً ، مفكك الاوصال ..

ولكن ، كم يحفظ ذلك الشال من اشياء فى الوانه المشوهة الداثرة ، عن جدتي !..

فى كل مرة ، حين تقع انظاري على هيئته المتفسخة ، تتولد في ذكرى جديدة تمثل جدتي ، وحين امر من قربه ، اشمر واضحا ، برائحة شعرها الاشقر ، المخضب بالحناء ، تلك الرائحة المحبذة .

مسكينة انته يا جدة ، انني لا ازال اذكر ، كهذا النهار الناصع الالوان ، ليالي ذلك الصيف ، الحلوة . لما كنا مجتمعين ننشد الاناشيد تحت لألاء القمر ، نتمازح ونتضاحك ، وانت كنت الى ناحية عنا ، وحدك ، تفكرين بابنك الثاني المغترب ، تتحرين شوقا اليه ، وقلبك، قلب الامومة ، ينبوع الحب والرقة ، لعدم تحمله ذاك ، كنت تسكبين دمعا علقما .

لم يكن هناك من مآس لك . اننا كنا نجهل عذابك ، لانك كنت تعرفين كيف تسترين الامك عنا كي لا تعكري صفو سعادتنا ، كيف تتعذبين وتذوبين لوحدك كالشمعة .

كان هناك واحد فقط ، ماسح دموعك : شالك الصوفي الاسود ، رفيقك الودود والغالي عليك ، الذي كنت تحملينه دائما على راسك وكتفيك .

وتكرارا ، هو الذي لما كنت تذهبين ، فى ايام الشتاء الى الكنيسة منحنية الظهر ، كان يلتف حول راسك ووجهك تاركا عينيك فقط مكشوفتين ، وكان يحفظ فى ثقوبه ارتعاش القر . وانني اذكر فى ايام ذلك الشتاء القارس ، حين كنا نعود من المدرسة ونحن نرتجف بردا ، كيف انك

ازاهير العيد

مررت وما عهدتك تسرعين
لمن تلك الازاهر تحملين ؟
اعربون المحبة والحنــين . . .
يقدمه الخدين الى الخدين ؟
ترى نحو المقابر تذهبين ؟
امات الحب من الم دفين
وعاد الى الثرى ماء وطين ؟
بربك ما غصون الياسمين
اذا وضعت على قبر حزين ؟!
ايشعر في الثرى قلب الدفين ؟
وينبض بالحياة وبالرجـاء ؟
وينفض عنه اجنحة المساء ؟

قفي . . . نبك المحاجر والعيون
وقد فتكت بها ايدي المنون
ومات العاشقون الصابرون
وظللهم ندي الزيزفون
قفي . . لا تسرعي . . فالمسرعون
الـى اجـالـهـم يتشوقون
اراهم يذهبون ويمكثــون
فديتك . . هل تراهم يرجعون ؟
وتنفتح الجوانح والجفون
كان لم تؤذها ابدا شجون
ولم تحرم عيونهم الضيـاء ؟
وقد ماتوا على امل اللقاء .

اذا فنيت عظامي بعد موتي
ومل القبر من بؤسي وصمتي
تعالي . . حدثيني كل وقت
احاديث الغرام . . وما شهدت
فان النطق يحلو . . منك انت
وان لم تسمعي يا اخت صوتي
سلي تلك الازاهر ان اردت
فسوف تجيد اوصافي ونعتي
وفوق القبر مني ان جلست
وغالبك النعاس ضحى فنمت
اعيدي ذكر احلام الهناء
وما شهدته نفسي من صفاء .

وان غنت على قبري الطيور
وردد لحنها السفح النضير
وحن الى لياليه السمير
ورقرق ماءه النهر النمير
وفتحت الاضالع والصدور
وزينت الترائب والنحور
وسائل عن دمي ظبي غرير
فقولي . . مات وانتهت الامور

واما الروح . . . عالمها البقاء
فلا تسال . . . ولا تطل الرثاء .

حمص — عبدو مسوح

بصوت ناعم كالحليب ، كنت تدعيننا اليك وعلى خديك الذابلين ابتسامة حلوة .

ـ هلموا فراخي هلموا ، كي ادفئكم .

فكنا نسرع ، انا واختي ونتقلص تحت ابطيك . فكنت تغطيننا بشالك وتهدهدين خيالنا الطفلي بحكايات عذبة لا نهايـة لها . .

آه ! كم كانت حلوة تلك الايام ! : شيخوختك وطفولتنا .

والان ، اذ من جديد شتاء ، وقطرات المطر تطرق زجاج النوافذ ، وانا جالس في غرفتي منفردا اتأمل بشالك ، يخيل الي ، بانك ستخرجين ، فجاة ، راسك الشائخ من بين طياته وبابتسامة حلوة تدعيننا :

هلموا يا فراخي كي ادفئكم . . .

شاتو شاتويان

التطور اللغوي وصلته بالمجتمع

بقلم الدكتور محمود السعران

توصف لغات بانها « حية » واخرى بانها « ميتة » . والحق ان هذه الحياة وذاك الموت نسبيان يقاسان باستمرار استعمال هذه اللغات ، او بانقطاع دورانها على الالسن . ان اية لغة من اللغات هي نظام معين من النظم الاجتماعية ، وهي بهذا الاعتبار خاضعة لتطور مشروط بتطور الجماعة التي تتكلمها ، واية لغة باعتبارها نظاما من العلامات التعسفية المتواضع عليها لا يقوم لها وجود الا اذا استعملتها جماعة من الجماعات .

واشهر ما يساق من الامثلة على « موت » اللغات هو اللغة اللاتينية . ولكن اللاتينية لم تمت في الحقيقة، انها لم تمت من الناحية التاريخية ، بل اصابتها تغيرات عميقة انتجت اشكالا حديثة لها ابرزها البرتغالية ، والقشتالية ، ولغة قطالونيا ، ولغة بروفانس ، والفرنسية ، والايطالية ولغة رومانيا ، والاسبانية . وقد بلغ من شدة هذه التغيرات وعمقها انا نحس اذا نظرنا الى الاشكال الحديثة للاتينية بانها لغات مختلفة.

ومن اللغات التي توقف الناس من استعمالها اللغة الغالية Gaulish التي اخذت تزول شيئا فشيئا الى ان حلت محلها اللاتينية ، ومنها لغة كورنوال ، Cornish وهي لغة كلتية الاصل كان يتكلمها اهل الجزر البريطانية الى ان حلت محلها اللغة الانجليزية . ومن ذلك اللغة القبطية في مصر ، والبربرية في اقطار كثيرة من شمال افريقيا ، فقد حل محل هاتين اللغتين لغة العرب الفاتحين .

واللغة الهندو أوروبية العامة انبثق عنها عدد كبير من اللغات ، وكذلك الشان في اللغة السامية العامة ، وفي اللغة الاسكندنافية العامة التي انبثق عنها الايسلندية ، واللغة الفورية Foeric والنرويجية ، والسويدية والدانمركية. واللغة الجرمانية الغربية العامة ظهر عنها الانجليزية ، والالمانية ، والهولندية .

التوحد اللغـوي

في حياة اللغة ميلان متعارضان : احدهما نحو التقسم الى لغات ولهجات ، والثاني نحو الوحدة المتزايدة الاتساع. وكلا التقسم والتوحد اللغويين فعل احداث تؤثر في الجماعات . ويرى بعض اللغويين ان الاتجاه نحو التقسم اقوى من الاتجاه نحو التوحد ، وان الاتجاه الاول هو عملية التطور الطبيعية للغة ، ومن هؤلاء اللغويين « ويلد » H. C. Wyld الذي يقرر ان اتجاه اللغة هو نحو «التنوع اللانهائي » وهؤلاء اللغويون يستشهدون على رايهم بادلة كثيرة من بينها انه ما ظهرت لغة عامة الا تقسمت في لغات كثيرة .

ولكن « يسبرسن » O. Jespersen يرى ان هناك قوى لا يجوز التغافل عنها تعمل في الاتجاه المضاد ، وان « هذه القوى الموحدة كانت في العصور التاريخية اقوى في حقيقة الامر من القوى المقسمة ، وانها لكذلك في الوقت الحاضر على وجه الخصوص ، وستكون كذلك يقينا في المستقبل » ومما يستشهد به يسبرسن ان عدد اللغات الان ، وان كان اكثر منه في بعض العصور الماضية ، الا ان عدد المتكلمين بلغة من اللغات المنبثقة عن لغة عامة – في عصرنا المزدحم بالسكان ازدحاما لم يعرف من قبل – هو في معظم الحالات اكثر اضعافا مضاعفة من مجموع الذين كانوا يتكلمون تلك اللغة العامة . ومن امثلته على هذا ان عدد من كانوا يتكلمون الجرمانية الغربية العامة ضئيل جدا بالقياس الى المائة والخمسين مليونا الذين يتكلمون الان الانكليزية ، والخمسة والسبعين مليونا الذين يتكلمون الان الالمانية ، والعشرة ملايين الذين يتكلمون الان الهولندية . ثم يعود يسبرسن فيحترز بعض الاحتراز مقررا انه ايا ما كان الحال فالواقع ان الميل جد قوي نحو ان يكون عدد المتكلمين بلغة واحدة ونفس اللغة اكبر بكثير منه في اي زمن مضى .

اما العوامل المعينة على ظهور لغة عامة وعلى نشرها فكثيرة معقدة متشابكة . وذلك لان الحياة الاجتماعية تقوم على العمل المشترك لقوى كثيرة مختلفة . وهذه العوامل تختلف طبيعة وقوة ودرجة ، فقد تكون سياسية ، او اقتصادية ، او قومية ، او ادبية ، او غير ذلك .

ودراسة ظهور اللغات العامة التي تكونت في العصور التاريخية تبين انه لم يحدث في حالة من الاحوال ان كان ظهور اللغة المشتركة او العامة راجعا الى عامل فرد ، وانها لتبين كذلك انه من العسير في كثير من الاحوال معرفة اي العوامل كان اقوى اثرا في تكوين اللغة العامة او في اذاعتها .

ولذلك فسنعرض فيما يلي اهم العوامل ذات الاثر في تكوين اللغات العامة ونشرها ، دون ان يعني هذا بالضرورة ان هذه العوامل لا بد من توفرها في كل حالة .

يعتمد التوحد اللغوي دائما على الاتصال والاختلاط وعلى الاشتراك في الحياة . والاتصال الفعال في توحيد اللغة قد ينشا عن حرب تسبب اختلاط سكان ينتمون الى اماكن مختلفة ذات لهجات مختلفة ، وقد ينشا من عقد الاسواق الموسمية ، وعن المصاهرة بين اصحاب اللهجات المختلفة ، هذه المصاهرة التي يدعو الى قيامها ظواهر اجتماعية ونفسية . وللدين دوره الهام في قيام اللغات العامة ، فالاعياد والاجتماعات الدينية الكبرى تؤلف بين الناس قاصيهم ودانيهم ، ومن ذلك اثر اجتماع عرب الجاهلية في مكة خاصة في ظهور اللغة العربية المشتركة ،

وما كان لمعبدي دلفي واوليمبيا في اليونان – وكانا مزار جميع الهيلينيين – وللالعاب الاولمبية عند اليونان التي كان لها دلالة دينية . وللكنيسة دورها الهام في توحيد اللغة في كثير من البلدان ، وان كانت احيانا معرقلا التوحيد اللغوي عندما تحتفظ بلغة قديمة .

اما الادب لا سيما الشفوي فمن اكبر القوى العاملة على تكوين اللغات العامة واستفاضتها . فالرواة والقصاص والمنشدون والمغنون كانوا ينتقلون بادبهم من قبيلة الى قبيلة ومن بلاط ملك او امير الى بلاط غيره ، ولقد كانوا مضطرين في كثير من الاحوال الى ان يستعملوا نوعا من الكلام العام يفهم جوهره اصحاب اللهجات المختلفة الذين يعرضون عليهم ادبهم ، وكثيرا ما كانوا يعمدون الى ان يسقطوا من كلامهم ما قد يستعصى على الادراك من عناصر لهجتهم المحلية ، وهكذا تكون لغة ادبية عامة . ولقد وجدت في ايرلندا في العصور الوسطى لغة عامة من هذا النوع كان اعظم عامل في ظهورها راجعا الى تاثير القصاص وهكذا كان الشان في لغة الادب اليوناني القديم : نشات كل فنون الادب اليوناني – ما عدا المأساة – في المستعمرات اليونانية فيما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد ، ولقد كان بين هذه المستعمرات تبادل قوي . ولغة هذه الاثار الادبية لا تطابق لغة بلدة خاصة فهذه الاثار الادبية لم تكن موجهة الى بلدة واحدة بل الى مجموعة من البلدان ، والى اليونان كلها في واقع الامر . نعم ان كل فن من فنون الادب اليوناني كانت لغته الخاصة مصطبغة بلغة ذلك الاقليم الذي ظهر فيه لاول مرة ، ولكن مثقفي اليونان في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد كانوا يفهمون النصوص الادبية اليونانية وان كانت مؤلفة بلهجات جدنائية .

وان اثر الادب في تكوين اللغات العامة وانتشارها يصحبه ظروف اجتماعية خاصة سياسية واقتصادية وغيرها . اما القول بان لغة عامة قد كونها اديب واحد فهو قول غير صحيح . ومن ذلك الاعتقاد الذي كان سائدا ان الايطالية قد كونها دانتي ، والانجليزية كونها تشوسر ، والالمانية كونها لوثر ، والدانيمركية كونها كريستيرن بدرسن . فقد اظهر البحث ان كل لغة من هذه كانت مكونة قبل ان يخط هؤلاء حرفا . ولكن اهمية هؤلاء الاعلام انهم دفعوا ما كان متحركا من قبل فقد اعتبروا نماذج ادبية ، واخذ يقلد لغتهم اناس ما كانوا لولاهم ليتكلموا او يكتبوا اللغة العامة .

واما الحالة السياسية فذات اهمية قصوى فيما يتعلق بالعمل على التوحد اللغوي او على عرقلته . فاذا قدر لولايات كل منها مستقل ولكل لهجته ان تتحد تحت حكم واحد كانت الفرصة مواتية لظهور لغة عامة : فالحكومة الواحدة مضطرة الى ان تخاطب سكان البلاد اجمعين على اختلاف لهجاتهم ، كما ان مقر الحكم من شانه ان يستهوي الطامحين من مختلف الولايات ، وهؤلاء سيجدون انفسهم مضطرين الى التنحي عن كثير من خصائص لهجتهم المحلية . وقد لوحظ انه حيث تكون الحكومة مركزية الى حد كبير تنتشر اللغة العامة ، وذلك شان الامبراطورية الرومانية القديمة بلغتها اللاتينية الرسمية .

اما المانيا التي ظلت قرونا ولايات مستقلة سياسيا وبدون عاصمة فهي مثل على عرقلة الحالة السياسية لظهور لغة عامة . فقد حدث حتى بعد ظهور اللغة الالمانية العامة – التي كان يعمل على ظهورها، من قبل اتحاد المانيا، قوى اخرى موحدة – ان اللغة العامية التي يتكلمها متعلمو الالمان حتى في ايامنا هذه اكثر تلونا باللهجات المحلية اذا قيست بعاميات المتعلمين في معظم البلاد الاوروبية الاخرى . ومن العوامل ذات الاثر في ظهور اللغة الالمانية « لغة المحاكم » السكونية التي كانت تقلدها محاكم اخرى بما فيها محاكم النمسا التي اصبحت شبه لغة كتابية عامة رسمية .

ثم كانت ترجمة لوثر للكتاب المقدس، هذه الترجمة التي كانت كبيرة الاثر حتى في البلاد الكاثوليكية ، باسلوبها الحي الجديد الطبيعي، وباختيارها التعبيرات التي لم تكن ملكا خالصا لاقليم الماني بعينه . ولم يقتصر الامر على لغة الكتابة فقد كانت ثمة عوامل تعين على نشر لغة الكلام العامة . ومن ذلك ان لغة الكلام الالمانية العامة قد ادخلتها في المناطق الشرقية من المانيا طبقة عليا من طبقات المجتمع، وكانت السلافية لغة الكلام في هذه الاقاليم من قبل . وكانت هذه الطبقة العليا تتكلم الالمانية بصورة بالغة الدقة ، اذ كانوا يحسون ان عليهم ان يتكلموا « كلاما صحيحا » والا يرملوا انفسهم على سجيتها شانهم في بلد صغير في سكسونيا، او تورينجيا او بافاريا .

ومن اهم العوامل المساعدة على تكوين لغة عامة وانتشارها في المجتمعات الحديثة ، الخدمة العسكرية ، والمدارس والجامعات فهي تتيح الاتصال بين اشخاص من اقاليم مختلفة ذوي لهجات مختلفة ، وهكذا ينفسح المجال لظهور كلام مشترك .

اما السينما والاذاعة والصحافة فهي من اكبر وسائل نشر اللغة العامة في العصر الحديث ، فكلامها المنطوق والمكتوب يوجه الى اصحاب اللهجات المختلفة ، فينهنه من حدة الاختلافات المحلية في اللغة .

وظهور المدن الكبيرة قديما وحديثا – وقيامها راجع الى ظروف اجتماعية خاصة – خطير الاثر في توحيد اللغة .

فالدور الذي قامت به اثينا وروما قديما في تكوين اليونانية واللاتينية واذاعتهما دور عظيم ولو لم تكن الاعتبارات السياسية وغير السياسية التي شاركت في ظهور هاتين اللغتين فقد كانتا ستقومان بهذا الدور . ذلك لان المدن تجذب جماعات من الناس من اقاليم متفاوتة متباعدة فضلا عن اجتذابها اناسا من ضواحيها المتاخمة لها . وينتج عن اختلاط هؤلاء المهاجرين بعضهم ببعض، وعن اختلاطهم

بالسكان الاصليين ان تصقل لغة الجميع، وان ينتهي الامر بان يتكلم سكان المدينة الكبرى بطريقة لا تنتظر من موقعها الجغرافي، فالكلام العام المشترك لاثينا لم يكن اتيكيا Attic خالصا، والكلام العام لروما لم يكن كلام سكان روما الاصليين، والكلام العام للندن وباريس فى العصر الحديث ما هو بلندني خالص او باريسي خالص . ان هذه اللغات العامة ظهرت فى اثينا وروما ولندن وباريس ولكنها لم تظهر بفضل اثينيين ورومیين، ولندنيين وباريسيين .

آثار الاحتكاك بين اللغات واللهجات

تحدث احيانا اتصالات بين اللغات واللهجات نتيجة للاتصال بين الجماعات الناطقة بها دون ان ينشأ عن ذلك حلول لغة محل اخرى، وهذه الاتصالات لها آثارها اللغوية فى اللغات التي يحتك بعضها ببعض، وقد تكون هذه الاثار اقوى ظهورا فى احداها . ومن ذلك كثرة الكلمات العربية فى اللغة الاسبانية نتيجة لفتح العرب اسبانيا واقامتهم بها قرونا . ومنه ما فى العربية الفصحى منذ الجاهلية من كلمات حبشية ورومية وفارسية وهندية وسواها لما كان من اتصالات مختلفة الوسائل بين العرب وبين اصحاب تلك اللغات . والدخيل الفارسي قد ازداد في العربية بعد الاسلام خاصة ثمرة لازدياد الاحتكاك بعد العرب والفرس . والفارسية نفسها اخذت من العربية بعد الاسلام وكان من اظهر ما استعارته مصطلحات عربية علمية ودينية . وكثر الدخيل اليوناني فى العربية لما نقل العرب الى لغتهم فلسفة اليونان وعلومهم . وفى العاميات العربية الحديثة كلمات تركية دخلتها بعد ان آلت الخلافة الاسلامية الى العثمانيين واستمرت فيهم قرونا . كما ان فيها كلمات اوروبية مختلفة الاصول، وان غلب اصل هنا واخر هناك، نتيجة الاستعمار الاوروبي للعالم العربي الحديث ولسوى ذلك من الاسباب، فتكثر فى العراق ومصر كلمات انجليزية الاصل، وفى سوريا ولبنان وتونس والجزائر كلمات فرنسية ، وفى ليبيا كلمات ايطالية ، وفي انحاء من مراكش كلمات اسبانية . وقد اخلت العامية المصرية فى السنوات الاخيرة — ولا تزال — تؤثر فى سائر العاميات العربية على تفاوت فى الدرجة لمكانة مصر حديثا من العالم العربي: ووسائل نشر المصرية فى سائر الاقطار العربية من اهمها الافلام السينمائية المصرية واكثرها بالعامية ، والافلام المصرية تكاد ان تكون الافلام العربية الوحيدة التي تعرض فى كثير من البلدان العربية لتخلف الفن السينمائي فى هذه البلاد او لعدم قيامه اصلا، ومن وسائل نشر العامية المصرية ما فى الاذاعة والصحافة المصريتين من قصص وتمثيليات واغان ومقالات بالعامية، ومعروف ان لهاتين الوسيلتين اثرا فائقا فى سائر الاقطار العربية . وثمة وسائل اخرى لانتشار العامية المصرية منها كثرة الوافدين على مصر من البلاد العربية لتلقى العلم فى مدارسها ومعاهدها وجامعاتها، وللزيارة والاتجار والاقامة ، ومنها البعوث التعليمية المصرية واهمها فى العربية السعودية ، والكويت، واليمن، والعراق والسودان، وليبيا . ولقد نتج عن انتشار العامية المصرية فى سائر الاقطار العربية ان صار اهل هذه البلاد ، لاسيما المثقفون منهم وسكان المدن الكبيرة، افضل فهما للعامية المصرية من المصريين لعاميات البلاد العربية الاخرى .

وفى المجتمع الحديث الذي كثر فيه الاتصال بين الامم وسهل، نتيجة للانقلاب الصناعي، والمخترعات الحديثة وسرعة المواصلات وازديادها ولسوى ذلك من العوامل ، نجد كلمات مشتركة بين كثير من اللغات الاوروبية اصلها ايطالي او الماني او انجليزي مثلا، فانتشرت فى هذه اللغات اسماء لوحدات كهربائية ماخوذة من اسماء مخترعيها مثل Ampère — Volt — Ohn بل نجد كثيرا من الكلمات الاوروبية تنتشر فى لغات غير اوروبية كأسماء بعض المخترعات والالات مثل راديو — تلغراف — تليفون — سينما — فيلم — بيانو ... الخ .

ان كثرة المفردات الدخيلة نتيجة لما يحدث بين اللغات واللهجات من احتكاك امر معروف مقرر من قديم وربما كان ابرز واكثر ما ينشأ عن هذا الاحتكاك، ولكن النظر الى الاثار الناتجة عن الاحتكاك بين اللغات واللهجات قد تغير فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، وفى ضوء علم اللغة الجغرافي ونظرية الموجات اللغوية بصفة خاصة . ومن اهم ما اخذ المحدثون من اللغويين فى الخوض فيه فيما يتعلق بهذا الموضوع هو امكان تاثير الاتصالات بين لغات الجماعة التي يحتك بعضها ببعض فى بنية اللغات .

فمن العلماء من يرى انه حيث تظهر في لغات متجاورة من الناحية الجغرافية سمات مشتركة لا يفسرها اشتراك هذه اللغات فى اصل لغوي واحد فمرد ذلك الى تاثير بنية لغة منها في سائرها، ومن ذلك ان الصوتين الصائتين ü, ö (الفرنسية e, eu, u) ودرجات مختلفة منهما تستعمل فى مساحة تشمل الفرنسية ، ولغات من المجموعة الجرمانية الغربية هي الالمانية، والفلمنكية والهولندية . ومن الامثلة التي يستشهد بها على تاثير النظام النحوي للغة فى النظام النحوي لاخرى او اكثر نتيجة للاتصال بينهما انه في شبه جزيرة البلقان تظهر فى اليونانية والبلغارية ولغة رومانيا والالبانية سمات مشتركة تميز كلا من هذه اللغات من سائر لغات عائلتها، ومن ذلك استعمال الفعل الذي يعنى « يريد » لتكوين فعل دال على المستقبل (ففي اليونانية مثلا تستعمل عبارة thèlô hina و thèlô معناه « انا اريد »، وذلك كما فى الفرنسية العامية او المحلية il ne veut pas pleuvoir بمعنى il ne va pas pleuvoir) . ومن امثلة الخصائص المشتركة بين اللغات المتجاورة غير المنتمية الى اصل لغوي واحد، ما يلاحظ فى معظم لغات الشرق الاقصى من التوسع فى استعمال النغمات استعمالا وظيفيا للتفريق بين المعاني، ومن ان التميز بين الاسم والفعل في

— التتمة في صفحة ٣٣ —

المصـــــير ...

⊙

الى المشردين في نابلس عندما هددوا
بالزحف السلمي الى ارضهم

لطـارق مصــــاروه

●

عمـان ـ الاردن

احس يا نجوم ان ساعدي قصير
وان عند شفتي ينحبس الكثير
احس يا ربيع ... يا ربيع ان خطوتي
آذارها حرائق اليباس والصرير
احس ان في غدي مصائرا
متاهة ، تسال عن مصير ...
مدحرج على الرمال مرمد الجفون
... في مغازة ... اولها الاخير
اجـوع ،
عند اخوتي مجاعة سوداء ، عند امنا
الحصى ... ، ووالد ضرير
وخيمة متاعها ممزق الحصير، فى عتمتها
عيوننا السراج، والخروق تحتنا السرير
والبـرد ...
البرد يا شتاءنا اطل يا خيمتنا
تزنري بالالم الكبير فى شقائنا الكبير
وزحزحي الثلوج عند بابنا .. وهزمي
مجاعة الذئاب عند بابنا عواؤها الخطير
احس يا رفاق موتنا ... اشربه
احمله ... اقطع فى يقينه البحور
احس يا رفاق ان فى عروقنا حكاية ...
اولها البارود ... والسعير
يا غدنا .. الى متى نحن هنا ؟
على يد ممدودة على غد مرير
ودارنا هناك .. عند غاصب
يرتع فى زيتوننا قرير !!
وارضنا بيارة خضراء يا انفاسها العذاب ـ
ـ يا عبير ..!!
الى متى ؟
وعالم الشعوب فى اجفاننا
يدرج، فى احداقنا، يسير
الى متى ..؟
والثورة المشبوبة الاوار فى قلوبنا
تثور ... لا تصير ...
الا اهمسوا ...
الا احبسوا دموعكم .
فهنا لا يدمع الكسير
الا اهمسوا ...
لعودة الشريد فى حنينها ملاحم
يرهبها العسير
لنا قدم .. لنا الم يدفعنا
لان نكون عندها فهذه «الحدود» لا تضير
نناكل الرصاص ... او ياكلنا
لكننا نواجه المصير ...





بقلم سليم زهدي

يا اصدقائي ويا تلاميذي لا تتخيلوا ما حدث بعد ذلك فانا لا استحق ظلمكم . «س»

لن تجهد نفسك اذا تعرفت عليه حتى تيقن انه « فنان » ... فنان نكتة .. فنان حديث .. يحدثك عن الادب فيشعرك ربما من غير جهد بانه اديب كبير .. ويحدثك عن الصحافة فيجعلك تقر وتقتنع بانه صحافي قدير ... ويحدثك عن السياسة وربما استطاع ان يقنعك ايضا بانه سياسي ضليع .. اما اذا انتقل الى جو اخر من الحديث ... الى المرح والنكتة فانك تشعر انه فنان بكل ما في هذه الكلمة من معنى .. يحكي الطرافة او النكتة فترويها عيناه ونظارتاه السميكتان ، وجبهته العريضة قبل ان يترجمها فمه حديثا حلوا تسبقه الابتسامة المرحة وحركات اليدين التقليدية من ضغط على المنظار وتسوية لياقة القميص وربطة العنق ... وتبدا الطرافة .. وتبدا شخوصها بالحركة امام ناظريك حتى لتشعر كانك امام فرقة كبيرة على مسرح متكامل الديكور .. وغالبا ما كانت طرافاته تنتهي بضحك طويل صادر من الاعماق .. وتلك طرافاته ونكته لا بل تمثيله حتى تتقصد ان تجتمع معه ثانية وثالثة في جلسة مرحة على مستوى الاقداح فتشرب معه وتستمتع بظرفه وتغرق نفسك في مرحه وحديثه بعض الوقت تتمنى لو يطول فيصبح ساعات وساعات .

هذا هو صديقي الذي تقصدت ان القاه ذلك المساء لاقضي معه بعض الوقت في شرب كاس عرق ترويحا عن النفس بعد ان سئمت حياة المدرسة وضجيجها ... والتلاميذ ومشاكلهم الكثيرة وشكاياتهم المتواصلة .

كان صديقي في ذلك المساء كعهدي به .. مرحا من غير تكلف .. ظريفا من غير عناء .. يدل على ذلك حديثه الذي لا يخلو من لفتة مرحة ودورة ظريفة . وعندما جلسنا متقابلين على طاولة واحدة في احد المقاهي الصيفية المنتشرة في اطراف العاصمة كان الجو لطيفا منعشا .. يوحي بالسهر والشراب .. وربما بالمرح ايضا ... وحاولت ان انسى تعب النهار وان امرح .. واستشعرت بعض المرح والسرور يدبان الى قلبي ونفسي ما لبثا ان انقلبا الى شعور بالغبطة والسعادة حين قدم لي صديقي كاسا من الخمرة اضاف اليه الكثير من روحه المرحة واحاديثه الشيقة .. وشرب وشربت .. واحسست مع نشوة الشراب ولطافة الجو المنعشة وظرافة جليسي الممتعة ان باستطاعتي ان اوزع على الناس جميعا فرحا وسعادة .. وربما شعر صديقي بمثل ما شعرت به .

وانتهى بعض الوقت هذا بشرب كاس في احد المقاهي الصيفية ، ليبدا بعض وقت اخر وسط العاصمة ... بل وسط علبة من علب الليل قالوا في اعلاناتهم عنها انها تقدم فنا راقيا ... شابان لعبت النشوة في راسيهما واحسا بسعادة لامتناهية في يوم عطلتهما الاسبوعية .. واستلمتنا الاضواء الخافتة الحمراء واخذت تعمل فينا طبعا وتحميضا وتلوينا حتى اخترنا طاولة ملائمة من بين الطاولات القليلة التي ما تزال تعلن عن استيعاب العلبة لعدد اخر من الرواد ممن يمكن ان يجذبهم ما قاله الاعلان في الخارج ... وجلسنا بترف على الكراسي الانيقة اللامعة .. واخرج صديقي صندوقا من التبغ الاميركي الفاخر كان قد اشتراه في الطريق واشعل منه لفافة واعتذرت ... وبدات اصنع لنفسي لفافة من التبغ الشعبي ...

واستلمنا بحذر العيون ... عيون جيراننا عن الشمال وعن اليمين تتفحصنا بفضول وامعان .. الطاولة على اليسار يجلس بجوارها ثلاثة شباب عرف واحد منهم صديقي فاشار له بالتحية عندما التقت عيونهما ... وطاولة اليمين كانت تسعد بجوار حسناء .. يصل عطرها الدافىء الى انفي ناعما رقيقا .. واستطعت ان اميز ملامحها عندما انتهت نمرة الراقصة التي كانت على المسرح تحاول ان ترقص .. واضيئت الانوار ... سمراء غامقة على حلاوة .. عيناها سوداوان واسعتان تطلان على الناظر وتصفقان له بهدبين ناعسين فاحمين سوادهما اترف وابدع من سواد العينين .. وشعرها الطويل المسترسل حالما على كتفيها العاريين متجانسا مع لون الجسم الاسمر الغامق وسواد الهدبين الاجمل من سواد العينين الواسعتين .. كانت تجلس بارستقراطية ظاهرة وامامها على الطاولة كاس ويسكي بعث به احد الزبائن ... توزع النظرات هنا وهناك وعلى شفتيها ابتسامة عريضة ...

وجاءنا « الجرسون » بكاسين من الويسكي .. وشربنا ومع كل رشفة كنا نزداد نشوة وسعادة ... وثرثرنا كثيرا ... وربما عن كل شيء ... وكنا نثرثر في بعض الاحيان باشياء طريفة ومضحكة تسمعها جارتنا السمراء فتسرها وتضحكها .. ضبطتها عيناي مرة وهي تضحك فقطعت ضحكتها وارتبكت قليلا ... ولعلها استقرات في وجهي شيئا ما شجعها فعادت تبتسم واحنت راسها مشيرة لي بالتحية ... وغنت مطربة شقراء

لحنا شعبيا رشيقا ... استمعنا له ... وبدا صديقي كانه معجب باللحن ومهتم .. وصفقنا مع المصفقين ... وصفق صديقي واتانا « الجرسون » بكاسين اخرين من الويسكي .. وطلبت السمراء مني ان اشعل لها لفافتها ... قمت واشعلت لها بولاعة صديقي الانيقة وشكرتني ...

وابتدأ البرنامج الغربي وانصرف قسم من الرواد ... وبدت الحلبة كانها اوسع مما هي عليه .. ورقص صديقي مع احدى « الارتيستات » .. وبقيت وحدي على الطاولة مع نصف كاس ويسكي .. واخرجت لنفسي لفافة من صندوق رفيقي الذي تركه على الطاولة ... وحاولت اشعالها من عود الثقاب الاخير الذي كان في الصندوق ... وقبل ان احاول اشعاله كانت يد بضة ناعمة تفوح منها رائحة عطرية حبيبة تمتد الي بولاعة ذهبية انيقة .. وعندما كانت اليد الناعمة الرقيقة تعالج الولاعة بضعف .. كانت رائحة الجسم الاسمر الغامق الذي انتصب امامي تملأ خياشيمي بنكهة الذ واعطر من نكهة اللفافة الفاخرة التي كانت ترتجف بين شفتي ...

وعندما انتهت الرقصة وعاد صديقي وجدني غارقا مع السمراء فى ثرثرة لا تنتهي وامامها كاس ويسكي ... وانحنى صديقي بلباقة وقدمته اليها ... وجلس وبدانا ثرثرة جديدة ... ثرثرة ترضي الجنس الناعم وتجعله شاعرا بانوثته وسحره ... واعترف ان صديقي كان ابرع مني بهذا النوع من الغزل او الثرثرة التي استحسنتها السمراء واخذت تضحك لها ضحكات ناعمة متصلة لا يعكر صفوها الا رشفات الويسكي وصخب جيراننا الشبان الثلاثة اصحاب الطاولة اليسارية الذين اخذوا يهرجون ويمرحون مع اللحن الصاخب الذي كانت تعزفه الفرقة ..

واعلن لحن « التانجو » الرقيق ابتداء الرقصة الثانية : قمت وقامت ... وتركنا صديقي مع ثلاثة اقداح فارغة .. وعندما كان ثديان بارزان من صدرها يحنوان على صدري ويحاولان اللصاق به .. وهي وانا نتمايل على انغام اللحن كانت اصابع يدي تتحسس بغزل ومداعبة اجزاء من كتفها الاسمر العاري وتعبثان عبثا رقيقا بخصلات ناعمة من شعرها المتراخي بكسل وخمول فوق كتفها المعور ...

وراحت عيناي النهمتان الجائعتان تستعرضان اقسام الوجه العريض الذي افقدته المساحيق الكثير من سماره الغامق ... الشفتان المكتنزتان ... والانف الدقيق ... والغمازتان المرحتان وسط الخدين .. وتسمرت عيناي والنشوة فوق سواد الهدبين الناعسين لحظة ... وحاولتا النفاذ الى ابعد من سواد العينين الصافيتين ... بينما كانت افكار زرقاء غامقة تضغط على راسي وصدغي بصخب وجبور وتنعكس همسات محمومة تختلط باللحن فتكاد لا تصل لاكثر من شحمتي اذن السمراء المبهرجتين بقرط انيق اصفر معرق بخطوط حمراء ...

همسات فيها الكثير من الثرثرة الجنية الفارغة والغزل الرخيص المبتذل ... كانت صامتة لا ترد ومع ذلك فقد بدت وكانها منسجمة مع ثرثرتي .. وددت لو تتكلم ... تقول شيئا ... تجيب على ثرثرتي ولو بثرثرة اكثر فراغا .. ولكنها لم تفعل .. .وبدا لي اني ازعجتها فصمت .. ورحنا نتابع اللحن لفترة عادت بعدها تسالني وكانها اشتاقت الى ثرثرتي :

ـ لماذا صمت ..؟

ـ لقد ازعجك حديثي .

ـ بالعكس لقد كنت مسرورة به كثيرا .

ـ لدرجة انك لم تسمعيه .

ـ ابدا ...

ـ اذن اتفقنا ؟

ـ ان نثرثر ..

ـ وماذا عن ..؟

ـ عن ماذا !؟

ـ عن ...

ـ آه فهمت ..

والتفت شمالا ويمينا وقربت فمها من اذني وهمست بحذر كانها تقول سرا لا تريد ان يسمعه احد :

ـ زجاجة ويسكي وخمسون ليرة

عندما انتهت الرقصة وعدت معها الى الطاولة .. كان شيئا ما قد حدث فى غيابنا .. الطاولة قد نظفت تماما فانتزعت عنها اقداح الويسكي الفارغة وقشور الفستق الحلبي وبقايا اطباق الفواكه .. وحل محلها فنجانان من القهوة وكاسان نظيفان من الماء المثلج وضعت تحت احدهما فواتير الحساب العديدة .. وصديقي يحتسي قهوته ومعه فتاة شقراء عرفت فيها المطربة التي غنت قبل قليل اللحن الشعبي الرشيق ... كان يتحدث اليها باندفاع عن شيء ما وهي تنصت اليه باهتمام ورغبة زائدين .. وقطع صديقي حديثه وقدمني اليها ... ولم يكن بحاجة لان يقدم رفيقتي السمراء ...

وجلسنا وراح يتابع حديثه مع المطربة بحنكة ودهاء بعد ان استماحنا عفوا للحظات .. تحدث عن الصحافة الفنية ودورها فى خدمة الفن .. وتحدث عن الدعاية واثرها فى نجاح الفنان ... وعن « الريبورتاج » الذي نقلته عن مجلته مجلة لبنانية كبيرة ... وعن الفنانة التي اجرى معها مقابلة صحفية واحدة جعلت العروض والطلبات تتهافت عليها من المخرجين والمصورين السينمائيين.. واشعل لفافة ثم تابع حديثه قائلا :

ـ تصوري .. انها كانت فنانة عادية .. لا بل مغمورة .. شهرتها الان تملأ القاهرة .. لقد مثلت ثلاثة افلام .. انها الدعاية .

وقالت المطربة :

ـ الحقيقة .. ان الدعاية سر النجاح .

ـ هذا هو الواقع .

ـ واقع ملموس .. الا تذكر سعاد ..؟

ـ اية سعاد ..؟

ـ سعاد زميلتي .. الا تذكرها ؟

ـ .. آه .. ذكرتها جيدا .. سعاد هي التي عارفت بيننا .

ـ .. وهل تذكر العرض المغري الذي تلقته من حلب ؟

ـ نعم اذكر ذلك العرض .. لقد تلقته بعد الريبورتاج المصور الذي نشرته لها ..

ـ هذا صحيح .. سعاد اعترفت لي بذلك .

واطفا سيجارته .. واخذ يتحدث عن الريبورتاج الجديد الذي سيكتبه لها .. والضجة الفنية الكبيرة التي ستنالها بفضله .. كانت تنصت الى حديثه بلذة وشوق وتود لو تغرق نفسها بكل كلمة يقولها .. وسالت :

ـ وماذا ستقول فى هذا الريبورتاج يا استاذ ؟

ـ سنقول .. سنقول ... نحكي لمحة عن حياتك الفنية .. وصوتك الحنون .. وفنك الاصيل .. والمعجبين .. والعروض .. الخ .

وعادت تسال بشغف :

ـ وماذا سيكون عنوانه ؟

وكان صديقي قد لحظ بحدسه الصحفي بريق الاقتناع والموافقة فى عينيها فاجاب :

ـ قضية العنوان هذه تتبع عدد الصفحات .. صفحة عنوان صغير .. صفحتان عنوان متوسط ... ثلاث صفحات عنوان ضخم .

وعادت تسال :

ـ وما هو عنوان الثلاث صفحات ؟

ـ لكل حادث حديث .

ـ اريد ان اعلم ..؟

ـ هذا سر المهنة .

ـ طيب خلاص اتفقنا .. ثلاث صفحات .

وبرشاقة مذهلة اخرج من جيبه دفتر ملاحظات صغير مترف الغلاف وقلم حبر حديث الصنع .. انيق المظهر .. واختار صفحة فارغة واخذ يتمتم ويكتب : « المطربة الكبيرة تهاني عبد الحميد .. تذكر لكتابة ريبورتاج فى العدد القادم .. ثلاث صفحات .. عنوان على اربعة عواميد .. صورة (١٠ × ١٥) وسط الصفحة الاولى .. ترسل للحفر فورا .. لمحة عن حياتها .. صوتها .. فنها .. المعجبين .. الخ . »

ورفع راسه عن الدفتر ووضع القلم جانبا واخرج منديلا ابيض مسح به انفه .. ثم ثبت نظارتيه على عينيه جيدا بكلتا يديه .. وبدا كانه يفكر بشيء ما ... واخذ القلم ثانية بين اصابعه وحك فى مؤخرته جانب راسه وبقي هكذا لحظة .. ثم لمعت عيناه ببريق مفرح حاد وقال :

ـ اما العنوان .. العنوان سيحدث اكبر ضجة فنية هذا الموسم :

وراحت تستحثه متسرعة واللهفة تملأ وجهها وعينيها :

ـ ما هو .. قل ؟

ـ تحفة .. تحفة .. تحفة الموسم .. ستنقله عنا جميع الصحف الفنية

ـ ولكن ما هو اسرع ..؟

ـ ساقول ..

ـ قل ...

وراح يقول متباطئا بفذلكة ظاهرة ويكتب كل كلمة يقولها :

ـ قمر .. صناعي .. يغزو .. العالم ..

وكادت « الست » تهاني تصفق لهذا العنوان وتزغرد .. ولكنها اكتفت بما ظهر على وجهها من بهجة ورضا .. وسالت مستفسرة :

ـ ولكن ماذا يهمنا من العالم ؟

ـ يهمنا منه العالم .. عالمنا نحن .. عالمنا الفني .

وظهر على وجهها انها اقتنعت ، ومع ذلك عادت تسال :

ـ ولكن لم ارك تكتب كلمة « الفني » هذه ؟

ـ انتبهي جيدا .. العنوان الذي كتبته سيكون بحروف كبيرة بارزة على عرض الصفحة .. وكلمة « الفني » هذه ستكون تحت هذا العنوان وبحروف صغيرة ..

ـ رائع .. رائع .. عظيم .

كان يتحدث اليها بثقة وصمود كانه مقتنع تماما ان باستطاعته ان يصنع منها شيئا ما .. وكانت تنصت اليه .. وتود لو تهضم كل كلمة يقولها ... وتستظهر كل حرف ينطقه تماما كتلميذة بليدة .

امتدت اللحظات التي استاذننا بها صديقي الى دقائق ... دقائق كثيرة .. تحدث فيها مع المطربة عن كل شيء يتعلق بالموضوع ـ موضوع الريبورتاج ـ الذي سيكتبه لها .. وكنت انا والسمراء نستمع للحديث دون ان نشارك فيه .. وبدت السمراء كانها مهتمة به لدرجة انها كانت تحرص ان لا تفوتها كلمة واحدة منه بالرغم من اصوات الهرج التي كانت تاتينا بين الحين والحين من طاولة يسارية مجاورة فيبدي صديقي انزعاجه لها وهو يتابع حديثه بصعوبة .

اما انا فلم اكن مهتما بالحديث اهتماما خاصا .. لقد الفت هذا النوع من الاحاديث منذ تعرفت على عدد من الصحفيين ومن بينهم صديقي الاستاذ سمير المحرر باحدى المجلات المصورة التي تعتني بشئون الفن والفنانين .. اذكر انه اصطحبني معه العام الماضي لمقابلة فنان كبير جاء الى دمشق لاحياء حفلة خاصة ثم اعتذر لمرض قال انه اصابه ... اذكر ان المقابلة استغرقت ساعة كاملة تحدثنا فيها كثيرا .. وربما عن اشياء لا تمت الى الفن بصلة « تكذيب اشاعة .. نفي خبر .. تاكيد المرض .. » واذكر ايضا ان الفنان الكبير قد احال صديقي الى احد المصارف ليقبض مبلغا محترما . كان يستشيرني في كثير من كتاباته ... ويطلب الي بعض الاحيان ان اكتب له شيئا ما في مواضيع فنية ... وكثيرا ما كنت اتهرب .. وذات مرة اخذني برفقته الى لبنان لنقضي ثلاثة ايام فى ضيافة مطربة ناشئة

كان قد كتب عنها مدافعا في قضية اخلاقية .. وقطع علي تفكيري صوت « الست » تهاني وهي تامر « الجرسون » الذي كان قريبا يحاسب الطاولة المجاورة ليأتينا بفنجانين من القهوة واضافت السمراء تقول له :

ــ سادة يا حسين .

واغلق الاستاذ سمير الدفتر الاسود المترف الغلاف ودسه في جيبه الداخلية مع القلم الانيق المظهر واخذ يتابع حديثه مع المطربة .. وبدا كانه يتفق معها على شيء ما .. وقربت السمراء فمها من اذني وسالتني بصوت مهموس :

ــ ما هو رايك .. هل تستفيد ؟
ــ تستفيد من اي شيء ؟
ــ من الريبورتاج .
ــ طبيعي .. طبيعي .. مؤكد
ــ وهل سيجعلها مشهورة ؟
ــ طبعا .. فلقد شهر غيرها .
ــ وهل سيلفت اليها انظار المخرجين ؟
ــ طبيعي فالمجلة تصل اليهم جميعا
ــ هل انت تعمل معه ؟
ــ تقريبا .
ــ اذن ستكتب لي ريبورتاجا .
ــ طبيعي .. طبيعي .
ــ بعنوان ضخم ..
ــ وصورة ملونة ..
ــ متى نتقابل ؟
ــ عندما تشائين ..
ــ ليكن غدا .
ــ حسنا .
ــ او بعد غد .
ــ حسنا .

وعندما انتهينا من حديثنا كان صديقي ورفيقته قد انتهيا من حديثهما ايضا وجلسا يدخنان بصمت .. وبدت الست تهاني وكانها تتهيأ للانصراف .. وجاءنا « الجرسون » بفنجاني القهوة .. وقدمت لنا الست تهاني اخر سيجارتين كانتا في علبتها المترفة .. وانصرف اكثر الرواد .. وهدأ الجو .. وخيم علينا صمت حبيب لا يسمع فيه الا صوت رشفات القهوة .. ودخان سجائرنا الذي اخذ يتصاعد صامتا عطرا فوق رؤوسنا حلقات حلقات .. رمادية مفرغة .. وانصرفت الست تهاني بعد ان اتفقت مع الاستاذ سمير على موعد الزيارة في اليوم التالي .. وتبعتها بعد لحظات السمراء .. وقمت وقام صديقي .. وصفق وسال « الجرسون » عن الحساب :

ــ واصل يا بك .
ــ واصل من مَن .
ــ الست تهاني يا بك .
ــ طيب شكرا .

وطلب كاس ماء وعلبة سجائر وتركته ينتظر .. ووقفت انتظره قرب « البار » .. واخرجت لفافة .. وقبل ان اشعل عود الثقاب جاءتني رائحة عطرية حبيبة .

ــ ولع يا استاذ ..
ــ شكرا .
ــ هل انت ذاهب ؟
ــ نعم ذاهب .
ــ وماذا عن ..؟
ــ عن ماذا ..؟
ــ عن الموعد ..
ــ الموعد ..؟!
ــ الموعد .. والريبورتاج .
ــ الريبورتاج ..!
ــ ايوه ..
ــ آه فهمت ..

والتفت شمالا ويمينا ..وقربت فمي من اذنها وهمست كأني اقول سرا لا اريد ان يسمعه احد :

ــ زجاجة ويسكي وخمسون ليرة .

اللاذقية — سليم زهدي

المدينة المهجورة

مدينتي المقت ابوابها ... على ماس هولها لا يطاق
ما كان فيها نعمة او ندى ... تطيب للهاوي فيحلو المذاق
الليل في اعماقها مغمض ... مستوحش فيها ثقيل الوثاق
فلتنعب الغربان في جوها ... ولتسكن البوم بهذا الرواق

هجرتها ... اغلقتها مغضبا ... منها ومن اسى الكئيب الاثر
القيد يا للقيد القيته ... لانظر الدنيا وضيء النظر
قلبي الذي حررته مطلقا ... ينمو باضلاعي جميل الصور
يا امنيالي ازدهري ها هنا ... فالكون رحب لا يعاني الضجر
خيراته .. اضواؤه ... رطبة ... تنثال في الروح كعطر الزهر

اني انام اليوم في اجنحي ... لذاذه الدنيا ... وبشر الصباح
خواطر المأساة يا بؤسها ... تبكي مع الليل وتطوي الجناح
فلننطلق والعمر في بسمة ... نشوى تريق الوجد بين الرياح

حلب — صباح الدين كريدي

بقلم توماس جود

ســــارتر والمجتمــع

ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة



(طرق الحرية) لسارتر جوناعش ، ولا سيما المجلدان الاولان اللذان نعنى بهما الان ، ولكن مثل هذا الجو قد يكون خانقا للمثاليين او واقعي المستقبل . اما القارىء المتامل المفكر ، فلن يرضى بيسر بما توصل اليه ، بالنظر لضجة المناقشة التي اولعت حول نشر هذه الفلسفة الجديدة ، لان نقد السرد لا يجدي نفعا من غير فهم لنظام الافكار الذي يكون الهيكل العظمي للرّواية . وسينغض كل هذا الهرج حول (فلسفة الظلام) ولذا فمن الخير للانسان ان يتعرف بنفسه على المعتقدات التي وضعها الفيلسوف نفسه . لقد تجمع قدر كبير من الادب فيما يخص الوجودية ، وبغض النظر عن اهمية هذه الفلسفة بصورة مطلقة ، فانها تجاوزت السريالية، سواء اكان ذلك من حيث اهميتها كموضوع للاحاديث والمناقشات ، ام من حيث كونها الهاما يوحي بما يوحي به الى الحركة الادبية . ولعل ما فعله سارتر فى الرواية ، من وجهتي التعبير والتوكيد ، هو الذي غير شكل الرواية ومضمونها معا ، وجعلها تنتقض على المثل الانسانية ، لاخفاقها فى تحقيق مراميها واهدافها . الامر الذي اثار معارضة شديدة من المحافل الكاثوليكية والماركسية على حد سواء .

فالكاثوليكي يعتقد بان السعادة المطلقة ، ومصير البشر لا ينحصران فىتحليل العبث وقبوله والاقرار به ،بل فى الاحياء الاخلاقي المؤدي الى غبطة الرؤيا (السماوية) . اما نظرة الماركسي فتتلخص في ان البؤس السائد وشقاء الانسان ما هما الا نتيجتان من نتائج المصايب الاقتصادية والاجتماعية، التي يمكن معالجتها والقضاء على شرورها .

ومن هنا ، فان تشخيص التبرم هو صفة ملازمة من صفات التاريخ الادبي لهذا القرن . وهو ظاهرة متميزة تدفع بطابعها الانتقال ، فى معالجة الحياة والمجتمع ، من الصعيد التقليدي الى الصعيد الثوري . وتبين ــ بصورة خاصة ــ مرحلة من التاريخ الاجتماعي ، حين تتأزم التناقضات بين الحرية الفردية ومصلحة المجتمع ، فتصل حدة التوتر الى اعلى درجاتها . وقد تنبأ كيركفارد بهذا النزاع بصفاء مزيد ، اما حل هذه المعضلة فلا يتم الا من طريق الفرار الى الذاتية غير المشوبة بالادران ، والرفض البطولي تجاه الاندماج فى (التاريخ العالمي) . واذا ما نظرنا الى المجتمع ككل ، فان هذه الفكرة تنعكس انعكاسا تاما فى خرافة النازية الموضوعية ، التي تيسر الهزيمة من رعب العزلة الفردية الى الموت العرقي racial تحت قناع التطلع الى السيطرة على العالم . ويمكن ان ترى ايضا ، تحت ضوء باهت من الرومانسية ، فى وهج الوطنية الفجة ، المتمثلة فىالحرب الاجماعية ، وفى التشبث الاعمى بكل ضرب من ضروب التعصب ، وفى الخرافات المغيظة عند (العميان) من الناس ، وفى المحاولات التي يجريها التحليل النفسي لاعادة الثقة الى الذوات المريضة ، وفى كل ظل من ظلال الوهم السياسي ، من الطوبائية الصافية الى قضية الدفاع عن الافكار التي يتعرض لها كتاب (الامير ليكا فيللي) .

وتجاه كل هذه الصنوف يشمخ سارتر بحيويته ، لالكونه شركا لايقاع اتباعه واصديادهم ولا لكونه مشاهدا سلبيا يستغل الراسمال (المغري) الثابت الذي يستخلصه من موضوع البحث النشط المتنوع الذي يجده امامه ، بل لانه مساهم حساس بهذه المسئولية مع شيءمن الارتباك اليسير . وهذا الشعور الادبي المرعب هو الذي يبعده عن الكتاب الفرنسيين الاخرين ، وبخاصة هؤلاء الذين يسخر منهم لترفعهم عن القضايا الحيوية من اضراب اتباع فلوبير وغوبتر وغونغور . ولعل لقسوته وشجاعته اثرا في الحط من قيمة هؤلاء الكتاب والافاضة فى ذكر نواقصهم ومصايبهم، ذلك بان ضعف سارتر هونوع من العقيدة المتحجرة الشريرة نوعا ما ، واستنادا اليها ، يتيسر له ان يقصي الامور التي يرى فيها وصمة ، او حتى ما يقف في طريقه من عقبات . وهذا الجهاز الدفاعي الذي يملكه ينبعث من شكه الباطني ، الذي هو مصدر (وجوديته) من غير ريب ولا شك ، وهو ــ فى الوقت نفسه ــ ملاذ تصميمه الذي لم يعرفه بعد . ومن هنا ، نلمح الرعب فى تفسير مدعياته ، حين تعرضت فلسفته للتحدي فى باريس ، كما تثبت حال تلميذه الشاك المرحوم ت ، ي لورنس ، وكما هي دعوة الكاثوليك لاصطياد روح رامبو ، او سعادة الاب تيريل . وبحسب علمنا ، فان هذا الشعور الادبي ، هو الذي انجب ما يدعى بالادب الملتزم . واعني بذلك ارتباط الادب باللحظة الزمنية ، كارتباط فكر (الوجودي) بمسالة وجوده بالذات .

ونتيجة هذا الترابط الذيتسعى فلسفةسارتر لتعضيده وتقويته ،يتبين لنا ان جزءا لا باس به من السفطة وبعض

الملاحظات النيرة المتمرغة فى الحقائق النصفية ، يمكن ان تظهر الشعور الانساني ، فى موقفه الشقي القابع فى الضائقة اللانهائية المتارجحة بين العدم والصيرورة . وفحوى الاستقراء من هذه الحالة يدلنا على سخافة الحياة ، متى ما فسرناها على ضوء الاساليب الفكرية التقليدية . وهذا الاستقراء لا يكون معقولا الا اذا قارنا تجربة الحياة بالحياة المفسرة على وفق تعابير العقل المجرد . ذلك بان الحياة لا تبدو سخيفة الا اذا اصدرنا عليها احكاما بالرجوع الى نوع من التقييم السابق . وكما لا نتوقع من الناس الخائبين الا المغالاة في كثرة الشقاء فى هذا العالم ، كذلك لا ينبغي لنا ان نتعجب من سماعنا لقرار التسخيف الصادر من مفكر يواجه التناقضات يوميا ، لانه قبل ، من غير نقد ، فكرة جبروت العقل . وطبيعي ان نقول باننا لا نستند الى شاهد مباشر لرد الفعل هذا ، بالقياس الى مسالة سارتر ، ولكننا نجسر على الاعتقاد بان قرار التسخيف يحمله حملا على كتابة الروايات والابتعاد المارق من القرارات الاخر ، وفضلا عن ذلك فهو يعكس ايضا ارتباك الاوضاع الانسانية المعاصرة .

ومع هذا ، قد يرد سارتر على ما نقوله بما يذهب اليه من ان تاملات الفيلسوف المحترف يجب الحكم على صدقها فى مجالها الخاص ، لا بتفسيرها نفسيا ، فهذا امر غير ضروري . ولكن هذا الرد يمكن ان يواجه بما توصل اليه ايرك فروم « نحن جميعا نساهم فى العقيدة التقليدية القائلة بان التفكير هو عمل ذهني صرف مستقل من الكيان النفسي للشخصية الانسانية » ومعنى ذلك « ان الافكار تصدر من ينبوع عاطفي » واذا ما قبلنا بهذا ، فليس يصعب علينا ان نسترق السمع لغيبية سارتر ، لنعلم كونها مازق انسان منطو على نفسه بكل جلاء ووضوح . وليس من قبيل المصادفة ، ان تمتزج الغيبية بنظرية منقمة ببعض التنقيح من نظريات التحليل النفسي وذلك في خاتمة كتابه (الوجود والعدم) . وهذه القضايا من الغموض بحيث تستعصي على الابانة المباشرة . ولم نشر اليها الا لانها تثير مشكلات ، لا يكتمل بحث المدرسة الوجودية من غير الالتفات اليها . اما الادب الملتزم فهو دعوة نبيلة تضفي على الكاتب مكانة مرموقة جديدة ، وشعورا باهمية عمله : وفى الوقت نفسه تقع المسئولية على عاتق سارتر ، لانه يقدم للناقد ما يستلزمه من معايير ، يصح – على اضوائها – ان يستصدر الاحكام المعقولة والقرارات القريبة من الصواب .

اما (عهد الرشد) وهي اولى روايات سارتر ، فيتالف مضمونها من جماعة صغيرة من البوهيميين الاذكياء القاطنين فى الحي اللاتيني الذين كانوا يعيشون في فترة ما قبل الحرب مباشرة ، تساورهم فكرة الحرية . لم يعرفنا الكاتب كيف وقع هؤلاء تحت سحر (الحرية) بصورة جلية باستثناء ماتيو ديلارو ، استاذ الفلسفة الشاب الذي هو من الذكاء بحيث يتفادى خلط الحرية بالرغبة الطفولية القيمة الذاهبة الى ان الحرية « ما هي سوى ما يشاء الانسان فعله » وهذا التحليل هو الطابع المميز للشخوص الرومانية النسائية منذ ثلاثة او اربعة عقود من الزمن ، وهنا يبدو الهدف الذي يداب ماتيو لنيله في مسيس حاجته لاقناع نفسه بانه المبدع الوحيد لتصرفاته ، وعلى ضوء هذا الهدف نـراه يمارس تجربة شديدة لفحص ذاته فحصا شاملا . وهو لا يطبق مبدا الحرية المطلقة الامن اجل تعضيد احترامه الذاتي ، ليس من طريق التصرفات التي تظهر معقولة بالقياس الى مصلحته المباشرة او غير المباشرة ، بل هو يلجا احيانا الى افعال شاذة كتحطيم بعض الاثار القديمة الرائعة ، او اغتصاب ملكية عمه بصورة غير شرعية .

ومن الجدير ذكره ان (البطل) حين يبلغ السادسة عشرة من عمره ، ينثال عليه وحي يبصره بلحظات جمال رائعة ، على ساحل بحر آراشون ، ... وهنا يعاهد نفسه بالسير على وفق تلك « اللحظات الطارئة » طالما ظل فى قيد الحياة . . وتكريس حياة الانسان لمثل هذه (القاعدة) تورطه فـي مزالق لا تنجيه منها الا التجربة الناضجة . ولا شك فى ان هذه الوضعية اسبغت قيمة رمزية على وجود ماتيو ، سواء اكان ذلك بالقياس الى نفسه او الى زملائه ، ولاسيما تلميذه المعجب به بوريس . ومع ان هذا المبدأ يوصف بانه هـو الحرية الواقعية ، ذلك التعبير الغامض ، المبهم ، فما يشغل ماتيو حقيقة هو مسالة حرية الارادة

نحن لانعرف الا اليسير عن مصادر حركة الوجود الانساني ، ولذا فاتخاذ مبدا الحرية دليلا للعمل يجعل النتيجة الفعلية لهذا السلوك نوعا من الالية الفاقدة الشعور المخيبة لاهدافها الخاصة . ومع ما فى مثل ماتيو الاعلى من نبل ، فى مفهومه على حسبانه ظاهرة خاصة لمشاعر جيله ومدعياته ، فهو لا يثبت كونه سوى غطاء عاطفي ، يستر هروبه ومراوغته للواقع ، اذا ما وقف متحديا الوضعية الانسانية الشاملة . وهذا التحدي يبدو سافرا حين تكتشف مارسيل ، خليلته الشابة الحمل الذي علق ببطنها منه . وفى الثقة المتبادلة التي اثارتها هذه الاحوال الطارئة يرى ماتيو علاقاته بمارسيل فى نظرة جديدة . اما التناقض الهستيري الذي اصاب ماتيو فى الصميم ، فقد دفعه دفعا الى القساوة والتقزز وحتى الرغبة فى الهرب بالتطوع فى الحرب الاسبانية الاهلية ، كعضو فى الفرقة الامية . ثم يطفح نوع من الغرابة على المحبين ، بما يظهره ماتيو من اعجاب بتلميذة شابة هي ايفيج.

وهنا ينتابه بلبال بسبب المشاكل العملية ، ايجرؤ ان يضع مارسيل في عهدة طبيب كي يجهض جنينها ، ايستطيع استدانة المال لتحقيق ذلك ؟ وهنا يرى حريته متعلقة بدوامة الازمة . وعلى ذلك ، فاللذة الفكرية التي سمحت باتخاذ مبداه المحبوب شعارا له ، او على الاقل ان يجرب فيه سرابا يرنو اليه لا تجديه نفعا ، ولكن هذه الاشياء جميعا تتلاشت بعد تطفل غيبيس (آلهة) الانتقام والذنب والتوبة .

وبفضل تجربة الحرية ، وبخاصة اذا فسرنا هذه الحرية على ضوء صلته الحميمة بمارسيل ، نراه مطرودا من جنة الغيب لينزل أرض الصلات الاخلاقية . وفى هذه الحال تتوازى الوضعية النفسية بوضعية مسرحية Huis Clos

مع خلاف ظاهر ، وهو ان شخوص المرحية محصورون فى مازق ، فى حين ان شخوص الرواية يواجهون ضرورة العمل المباشر .

وبعد تفتيش دقيق عن الاطباء القائمين بمهنة الاجهاض يعثر ماتيو على طبيبة معروفة بهذا الفن ، ولكنه يجد هذا العمل منكرا باعثا على الخزي والعار ، فكيف يبيح لنفسه ان يهدد حياة مارسيل ، على يدي امراة اثيمة ، وهذا ما يحدو به الى التردد قليلا . ثم يجد طبيبا احسن من التي وجدها، غير ان الامر يتطلب اربعة الاف فرنك ، فمن اين يحصل على هذا المبلغ ؟ وفى هذه الاثناء يتعرف على شاب مأبون يدعى دانيل ، يتعهد له بتقديم المال ، ولما كان هذا الشخص لا يعرف معنى لوعده ، يتنصل عن قوله بسرعة بعد تسويف ومماطلة . وعندئذ يصبح الاستاذ الشاب فريسة للاشمئزاز. فيبدا يتامل فى اغتنام فرصة الزواج بمارسيل ، على انها قد تكون حالة يستطيع بالتشبث بها ان يطبق حريته تطبيقا عمليا كما لمح دانيل بذلك من قبل . ثم استغل دانيل وضع ماتيو المتازم استغلالا انانيا ، ليشبع رغباته البادية وشذوذه المتأصل ... ولكن ماتيو يبتعد عن صاحبه ، ويسر اخاه بقضيته ، اما جاك ، وهو اسم اخيه ، فيرى ان الحل المعقول هو الاعتراف بشرعية الزواج ، .. ولما تصل الحال الى هذه الدرجة من الحسم ، يلقي ماتيو وطأة المسئولية على عاتق مارسيل ، زاعما انها هي التي تصر على فكـرة (الحرية) .

ثم ان الفترة ما بين محاولاته لاستقراض المال وبين جولاته الفلسفية فى المقاهي والحانات ، تمتاز بازدياد افتتان ماتيو بايفيج . وهذا اللهو يسمح له باثارة التوازن والاعتدال بين ميوله الجامحة المتناقضة . ذلك بان ايفيج لا تعلم شيئا عن الازمة الفكرية التي يكابدها ، وكل ما تعلمه هو ترقب نتائج الامتحان لتسلم شهادتها (الجامعية) ... تنثر كمية كبيرة من التعليقات الوجودية على (عهد الرشد) ولكن محور الرواية يدور حول ردود فعل ماتيو ، الفيلسوف الشاب ، الذي على الرغم من افتقاره للمبادرة كي يتعلم الانكليزية ، نراه ينضم الى الحزب الشيوعي او يتطوع في الحرب الاهلية الاسبانية . وهذا التناقض الفكري يواجهه في كل مكان ، ومع ذلك فهو يزداد سوءا بمحاولاته المستمرة الدائبة على ارضاء احترامه الذاتي . ولكنه لم يتاكد لحظة واحدة عما اذا كانت هذه الازمة في حياته ، انالته الحرية ام افقدته اياها . ولذا نشاهده يقوم بمحاولات يائسة لاقناع نفسه بان القلق الذي لا يتمكن من كبته تقع تحت مسئوليته على كاهل مارسيل ذاتها ..

ولما كان المؤلف يشدد عليه النكير قليلا نجده ينظر الى نفسه في مرآة العدم والفناء .. ومع ذلك فالهستيريا التي اصابته والرعب الذي اقضى مضجعه لهما ما يبررهما من اسباب ، والا فكيف يمكن لمفكر حساس مشغول بالخدلقة الفلسفية الا تتمزق نفسه والا يفرض نوعا من العذاب على ذاته ، وضربات عالم الواقع منهالة عليه ، منصبة على شخصيته القلقة المتبرمة ؟ ...

والموضوع الرئيس فى (عهد الرشد) يتلخص فى الجهود التي تبذلها شخوص الرواية من اجل انشاء علاقات شخصية، وهذه الجهود هي التي تاتي على المطامح والاهداف الشخصية بعد ان تشلها شللا مميتا . والى هنا ليس من شيء من الجدة فى المنازعات ذات الاثار البينة في السرد القصصي . ولكن سارتر في (الوجود والعدم) يقاسي مشقات شديدة ، ليبرهن على ان الحب ، على عده علاقة بين شخصين ، مثل اعلى عسير التحقيق . لان اندماج الشخصين الذي هو مطمح المحب والمحبوب على حد سواء يستلزم ابادة ذات احدهما على حساب الاخر . ومن هنا ، فان الاتصال الجنسي ليس سوى صلة عضوية تفسدها الرغبة الجامحة فى التملك .

والغريب فى الامر ان المؤلف يتصف بطبيعة ومزاج شاذين لا تمكنانه من ممارسة العلاقات الجنسية بصورة سليمة . . واذا كنا نعترف بان كثيرا من عباقرة العالم كانوا شاذين فى علاقاتهم الجنسية او الغرامية ، فلا يصح لنا ان نصدق هكذا تعليمات شاملة ، مع ما فيها من تعبيرات مقبولة عقلا . كما لا حاجة الى وضع مشكلات الحب والجنس فى فلك التجريد بوسائل الضغط الفكري ، الا اذا قبلنا الاسس التي يستند اليها الفيلسوف . ويبدو جوهر المسالة الخاصة بالحب ، في قدرة الحب على ملاقاة ضرورات كل عصر ، على اختلاف البيئة والاجناس البشرية ، ذلك بان هـذه القدرة تظل متحدية صروف الدهر بالاحتيال عليها والتشكل بما يلزم من اشكال .

اما الانكلو ساكسون فلا يرون فيما أثاره سارتر من مشكلات الحب ، مساسا جديا بسلوكهم العام ، لان حياتهم العاطفية تتبع نماذج تختلف كل الاختلاف عن النماذج الفرنسية ، وهذا ما هو معترف به . ومن المحتمل جدا ان القضايا المنسوبة الى شخوص سارتر ، والتي تبدو ملحة اشد الالحاح فى بحوثه ، ما هي الا نتيجة من نتائج سورة الرغبة ، فى قطر تعتمد فيه سمعة الانسان على نجاحه في اغراء اكبر عدد ممكن من النساء . وهذا يعني ان هذه القضايا ـ تعود فى جذورها ـ الى تربة ذات اخلاق محلية معينة . وفى تحديد الموقف المعاصر تجاه الحب ، يختلف كل من تحليلي هوليود وفرويد ، من حيث التوكيد على الفعالية الانسانية التي تعتمد اول ما تعتمد على تكامل الشخصية وعلى قدر النوايا الحسنة المنبعثة منها . والظاهرة البارزة

لدى سارتر هي استنتاجاته التي يستخلصها من الطبقات الدنيا.

اما اقرب ملاحظة الى كبد الصواب فهي ملاحظة الدوس هكسلي حين يذهب الى ان : الغلطة الاساسية التي تسبب معظم الشقاء وخيبة الامل في الحياة والحياة ، مصدرها عظم ما يتطلبه كل من القديسين والخطاة . ويشتد تأزم هذه الحال ، بالقياس الى شخوص سارتر ، لان الفجاجة تتدخل فيها تدخلا مباشرا . وهنا يبدو القلق والاشمئزاز والتقزز . وسارتر ، كسلفيه المباشرين بروست وجيد ، يظل مصرا على الاستيطان فى (الاراضي الرديئة) وهي تلك المستنقعات التي يترعرع فيها الياس الادبي ، وبذا تنكشف حقيقة الرومانسيين . ومع بعض التجديدات التافهة القليلة ، فالاراضي البورهي هي وما علينا الا ان نعبرها وجنون الفردية آخذبخناقنا ،ليرينامشانق النظام الوجودي المزركشة .

ومهما يكن من تحد فى هذا التفسير لوجهة نظر سارتر ، فهو لا يستند الى الاعتراف باي فكرة من افكار القانون الاخلاقي او التعصب البيوريتاني (السلفي) . وانما ينبعث هذا التحدي من الاعتقاد بان اي تخفيف من اوضار الوضعية الانسانية . . . يعتمد فى الختام على الاشادة غير المساومة بقيمة الانسان الرفيعة . وعلى الرغم من الفساد والافلاس الاخلاقي فمن السهولة ان تسهب في عرض السخفاللازم لزمرة من المتمردين ذوي الحساسية المريضة ، الذين يرفضون النظام السائد لسبب معقول ، ويحاولون الوصول الى نظام احسن منه . ذلك بان ماساة عصرناالمحزنةلاتنبعث من افتقار هذا العصر الى المصادر المبدعة للرؤى والافكار ، بل على الضد من ذلك ، فان الاكتشافات العلمية والتقنية، كما يؤكد اورتيغاي . غاسيت يجب « أن تزيد من القوى الفكرية الاستيعابية لدى الفرد الاعتيادي . ».وهذا لا يعني اننا يجب ان نطالب المؤلف بالانتصار للخير على الشر على وفق معايير الوصايا العشر .

والشيء الذي يمكننا التوكيد عليه ، بعد انتشار البربرية هذا الانتشار الفظيع ، هو وجوب وجود قاص يشعر بالمسئولية المتزنة لعرض المشاهد المعاصرة فى تناقضها الفاضح الصريح . وحتى فى هذا العصر نفسه نرى افرادا لهم من القدرة المستخلصة من المثل العليا ، ما تمكنهم من السير على وفق مبادىء قد تكون اعسر تحديدا من تلك التي سار عليها أسلافهم الفكتوريون او معاصروهم الاتقياء. واذا كان سارتر لم يصادف مثل هؤلاء الاشخاص ، واذا كان فضحهم هو هدفه الوحيد ، فاللوم كله يقع على عاتق سارتر نفسه . ونتيجة ذلك هي فقر مدقع يصيب عرضه لافكاره، فيثير الازعاج ، ويستعصي على الاصلاح . وعلى العكس من ذا لك، تظهر الطريقة الكلاسيكية ، التي تتطلب الادراك الشامل ، واللياقة التامة الامران البعيدان عن سارتر .

وطبيعي ان يرد علينا بكثير من الحق ، بان هذه النقدات فجة ، لانه لم تظهر من المجموعة الثلاثية الا مجلدان فقط ، ولذا فلا يصح لنا ان نكون فكرة عما يضمره سارتر فى مجلده الثالث . وكل ما نستطيع استنتاجه ــ فى اللحظة الراهنة ، ان ايديولوجية سارتر تعكس عن كره كامن تجاه قيم الثقافة الاوربية . . . وفى مستطاعنا ان نفهم ما كان للقلق الذي اصاب (اوربا) وما انتهت اليه من استنزاف لقواها من آثار في تشييد هذا الكيان الداعي الى الاشمئزاز والتقزز . وعلى اي حال ، لا نستطيع ان نتظاهر ، حتى بصدد الرواية، ان فرنسا قد سبقتنا شوطا ما . فـ (طرق الحرية) لا تحتذي فقط سبل (يوليس) بل انها تهتدي بهدى كتابات الدوس هكسلي المبكرة ، الا اذا استثنينا صفتها الساخرة الناعمة . ومع ذلك ، فان النصفية والافتقار الى الشمول فى تقديم سارتر وعرضه، لاتكادان تتملصان من تاثير ضرب من الماشوسية (١) المقنعة ذات الاثر الانيس . وليس غريبا في فرنسا المحتلة ، المنهارة ، ان تجد جمهورا مستعدا كل الاستعداد لتاثيرات التنويم المغناطيسي ومسرات اللهو . فكما تعيش بعض الطفيليات الطحلبية على المواد العفنة ، كذلك تفعل الانسانية في عهد المجاعة الروحية .

اما في LE Sursis وهو المجلد الثاني من المؤلف الكبير، فان شخوص (عهد الرشد) لا تظهر الا من حين الى حين، وكل السرد القصصي يتركز فى التوتر (السياسي) الذي سبق ميونخ . ولكن هذا لا يعني ان سارتر يستخدم نوعا من التقرير الصحفي الذي يبيح لشخوصه الحركة حسب ، لتكون مواطىء اقدام للحوادث السياسية . فليس من محاولة لاعادة تكوين تلك الحوادث المحمومة على وفق النمط التقليدي للرواية التاريخية . وكل ما هنالك ان سارتر تمكن بحلق من اصطياد بيئة تلك الايام وتارجحات القضايا الدبلوماسية ذات الاثر الفعال فى الحياة المدنية . وهنا ، كما فى حالة براوست ، يتسلم الزمن زمام الموقف ، فنحن فى باريس ومارسيليا وميونخ وبيارتس من غير ما تغيير ، ان من حيث صلتنا او تابعيتنا .

اما الانقطاع الظاهري التسلسل السردي فهو يجعلنا نرتبك من اول وهلة،كما يضعف اهتمام القارىء بالضرورة. وايا ما كان الامر، فواحدنا ينسى النهاية التي انتهى اليها كل من هتلر ودالاديه وتشامبرلين وسائر الزمرة ، ولكننا لا ننسى العملاق غروس لويس ، الذي لا يقدر ان يقرأ او يكتب والمسالم فيليب والمشغول بعلم النفس بير فى جولاتهم وتنقلاتهم ومشاكلهم الغرامية ، وفى اثارتهم للانتباه والاستطلاع . . . اما دانيل . الذي سبق ان تحدثنا عنه ــ فقد اصبح زوجا مراعيا للاصول والاداب . كما اصبح ماتيو اكثر قدرة على احتمال الخضوع والطاعة بعد تردده ، الامر

(١) مرض عصابي يمتاز بالقسوة فى ايقاع الالم بالحب ذاته ، على الضد من السادية المعروفة .

الذي يسعنا تبريره استنادا الى الضرورات الوطنية . اما ايفيج فهي حرة ، في حلقة الاسرة ، لكي تنغمس في العزاء الذاتي ، لتثبت حريتها من جديد ، بفرارها الى باريس ، حيث تتصل مرة اخرى بماتيو . وهنا نجد صورة دقيقة لما كان يعتمل في القلوب من فراق ووداع ، ولما كان من تاثير مدمر للتعبئة في الوطن الام . وفي هذه الاثناء نجد رسالة دانيل الى ماتيو ، في طولها ولغوها الفارغ ، وهي تصف مخاطرة عودته الى الدين الكاثوليكي .

والان وكل العدة الحربية على استعداد تحت انظارهم ، تهب الرجة المعاكسة ، رجة السلام . وبتاوهات ميلانو الخائبة الظن ينزل الستار على المشهد . وبغض النظر عن النتائج الوجودية في السرد القصصي ، فمن الاكيد ان سارتر ، بما تمتع به من قوة يثنى عليها ، قد نجح في جمع مستندات ذات اهمية عظيمة ،وحيوية رائعة، يشيدبذكرى رد فعل انساني تجاه اعظم الازمات في تاريخ هذا القرن ،بل ـ في الحقيقة ، في تاريخ العالم باجمعه .

وقبل ان نتطلع الى مصادر المدارس الظاهراتية التي اشتهر بها كل من هوزريل وهايدغر ، والتي استخلص منها سارتر العديد من افكاره ، علينا ان نلقي نظرة على نتائج فلسفة (الرجل) في تاثيرها المفروض على عقيدته وتصرفاته . فنكرة خلق الانسان لكيانه ليست من التعاليم الجديدة ، اذ ان صموئيل بطلر قال « انا ، ارنست ، انا الاله الذي خلقك فسواك » وقال هنري برفسون « وجود الانسان يسبق ماهيته » والقول الاخير لاسارتر نفسه ولا اي فيلسوف اخر يستطيع الاتيان بالبرهان عليه .

وهذا المذهب كغيره من الاحاجي ليس سوى طريق جديدة لاعادة تقرير حقيقة قديمة ، ومؤدى كل ذلك : ان الانسان بحاجة الى تكييف نفسه بالبيئة المحيطة به . ومع بساطة هذه الحقيقة ، فهي في عصرنا المبالغ في التحليل ، تعد احدى المعضلات الحادة ، التي تبدو بارزة على صفحات (طرق الحرية) . وليس من المبالغ في شيء ان نقول بان المعضلة متى ما انبعثت من شعور الفرد ، اخذت تغزو كيانه جميعه لتصبح الهاجس المقض له . وعندئذ يجد الفرد ضيقا وعسرا في البيئة التي يعيش فيها ، ويجد الخيار ما بين تحرير نفسه منها والخضوع اليها صعبا شائكا يعتمد على قوة قيمته الذاتية . واذا ما اقتنع بان سعادته وامنه يستندان الى الاندغام بمعايير الاكثرية ، فهو سيقوم بما في مستطاعه للانسجام بها ، ولو على حساب التضحية بتطوره الداخلي. ومن جهة اخرى ، فقد يقتنع بخطأ (المجتمع) فيختار طريق الذاتية . صحيح انه بتصرفه هذا ، قد يخاطر بعقله او بمعدته ، فيتهم بالجنون او يصاب بالجوع ، وخطر الجنون اشد فظاعة بالقياس عليه ، لانه قد يظنه حقيقة واقعة ، وهذا الامر يعكس حكم المجتمع غير الصحيح ، لا لشيء الا لان طريقته تخالف قانون المجتمع الخاص بالتصرف الصحيح.

وهذا ماهو حادث مرارا بالنسبة الى الفنان والمتصوف. ولهذا النوع من البشر ، ممن يحيا حياة ذاتية ، تبدو اعمال الجماهير سخيفة كل السخف . وعلى اي حال ، فاذا اندمج بالمجتمع ، على نطاق ضيق من العزلة ، فموقفه بالقياس الى ذكائه ، سيكون اكثر تحررا من المجتمع بالقياس عليه . واذا ما اسبغ عليه القليلون صفة البطولة دعاه الكثيرون جبانا، وان هددت الظروف حريته ، كان رضاه بقبول التهديد اسرع واجابته له اوقع . وحتى ما اخذت الاضواء الكشافة تصلت عليه الاشعاعية بجد وقسوة ، يجبر الفرد الانعزالي، المكتفي بذاته ، على الخضوع لمطالب المجتمع والانحدار الى مستواه تحت تاثير جبروت الانا العليا :

وكلما اقنع نفسه بسوء فهم المجتمع ونفاقه ، ازدادت قسوة هذا المجتمع في مطاردته وتعريضه للاضطهاد والمهلك الشديد . ذلك بان الشخص الوحيد الذي يرفض المجتمع مسامحته وغفران سيئاته هو ذلك الشخص الذي يعرف مواطن الادواء ويشرح اسبابها .طبيعي انناتكلم على المجتمع بصورة (عابرة) ذلك بأننا في حالة انحلال وتفسخ ، ولسنا في وضع يماثل في شمول قواعده وضع القبيلة البدائية ، او دولة القرون الوسطى ، من حيث فرض سلطانها للتمسك بعاداتها وتقاليدها . ومع ذلك ، فنحن نعلم علم اليقين ان النواهي والمحذورات لا يزال مفعولها ساريا ، الى يومنا هذا ، بشدة مرعبة واصرار عنيد . ومن هنا ، تنبعث خطايا شخوص سارتر ، التي لا يمكن ان نعزوها الى سبب واحد، لانها ارث اللاشعور الاجماعي ، والانعكاس الديني ، وفكرة العيش في عصر الحرية ، من غير ان تكون لنا ، في الوقت نفسه قدرة على ممارستها بصورة ملموسة .

واكثر الشخوص تاثرا ،في هذا الشان ،هو ماتيو ديلارو. فنحن نراه في تبكيت ضميره بسبب حمل مارسيل ،وسرقته من لولا ، وفي عجزه من اتخاذ المواقف الحاسمة . وبالنظر لعدم ولائه للقانون الاخلاقي ، شانه ـ في ذلك ـ شان اسرى جحيم Huis Clos الثلاثة ، فان نغمات التانيب الذاتي لا تزال ملازمة له . فهو لا يستطيع الا ان يكون ضحيتهم المعهودة ، كما كان قديسو الصحراء من امثال القديس انطون وكاسيان . ونجد مصداق ذلك في دانيل الملاك (الشاذ) ذلك الشخص الذي يعيش في ظل المجتمع ، على ما في هذا الظل من استهجان واستنكار ، مع ما يبديه من تصرفات مؤدبة تعيده ـ في الختام ـ الى حظيرة الله ـ ليعوض عما فاته من آثام . ونجد هذه الحال عند فيليب المتهور ، وعند غروس لويس اللذين يستحيان من الادعاء بمجرد وجودهما. ومع ذلك ، فهذا التقليل من قدر الشخص ليس له ما يبرره من اسباب اذا سايرنا منطق سارتر .

اذن فما الذي يسعنا قوله عن هذا المجمع من الضحايا ؟ اهم مجرد حفنة من الدمى ، يفعل فيهم خالعتهم ما يشاء ، من اجل عرض مازق وجودي ؟ ام انهم وضعوا كذلك

لمجابهة سخرية النقاد ! اذ لا يجب ان يغرب عن بالنا ، بان سارتر ، ابدع حفلا فوضويا ملعونا ، من الشخوص ليبرهن على مدى احقية فكرته الاساسية . وعلى الرغم من هذا الامر ، فان سارتر لم يشتط فيما عزاه للاشاخص من وباء القلق والامراض العصابية . فهذه المظاهر المرضية واضحة كل الوضوح ، في مطلع الحرب الثانية ، ولذا فمن الجدير بل اللازم دراستها وتتبعها . ومع وجود هذه الاسباب وتكاثرها ، فليس لنا ان نجعلها مقياسا للمجتمع ككل متضارم . وكل ما نستطيع فعله هو الانتظار لننظر الى ما يفعله سارتر بمثل الشخوص التي تحدثنا عنها ، ولا سيما في مؤلفه .

La dernière chance

وحتى هناك فان التجربة لا تخلو ان تكون طائفية او محلية ، على ما فيها من اصالة وصدق ، ومع ما فيها من دعاية وتحديدات لفلسفة جديدة ، وتشخيص حديث لامراض البشر ، وهذه امور لا تخفى على عين انسان اوتي البصر والتقدير .

اما تاثير سارتر في اشاعة الخير او الشر ، هذا التاثير الذي اغرى بالهرج والمرج بين النقاد انفسهم ، سواء اكان هنا ، في انكلترا ام فرنسا ، فليس لنا من حاجة بالاهتمام به كثيرا ، لانه ــ في المدى البعيد ــ اذا ما سلخنا منه الرطانة والتعمل ، لا يعدو ان يكون ــ كنتاج فلسفة ــ غطاء تضليليا يبرقع اطفال هذا الجيل ــ في موقفهم تجاه حقيقة الحياة الصعبة . لا يتجاوز سارتر خطايا هؤلاء الاطفال . بل نراه يعرضها ــ على ما فيها من فظاعة وشناعة ــ ولنا في هذه الصراحة دليل على رفضه للانخداع بالنفاق البرجوازي . وهو في هذا لا يمتاز في شي عن بودلير او زولا او جويس . اما استخدامه الكثير لخيالات قطيعه الجنسية فيدل على مدى تضلعه وفهمه لعلم النفس وتمكنه منه .

واذا قارنا هذه الميزات بتلك السفسطات السطحية التي يبديها القاصون ولا سيما في انكلترا ، من هؤلاء المتشبهين بالرومانسيين ، يتجلى لنا ما يستأهله سارتر من ثناء عطر ومديح هو جدير به . والحقيقة انني اجرؤ على القول بان سارتر متى ما ينسى ما يدسه في كتاباته من آراء وجودية وظاهراتية ، وحين يكتب على حسبانه فنانا ، يصبح اسلوبه مقنعا اشد الاقناع ورائعا اعظم الروعة ...

اما في مملكة الاخلاق ، فانني لا ارى فيما فعله سارتر شيئا سوى ان يرينا ما للوازع الديني من اثر فعال في سلوك الانسان ، على الرغم من انتفاء العقيدة الدينية الشاعرة بنفسها . ولا سيما في حالة شخوص (طرق الحرية) لانهم وان كانوا يمثلون الجانب السلبي من الاتضاع والاثم ، هذا الوجه الذي هو مسيحيا في جوهره ، فهم يمثلون آثارا متبقية من آثار الموقف المسيحي ... فمعضلة التاعسين الذين يجيد سارتر تصوير حالهم ، لا تتمثل في صلاتهم بالاخرين قدر معضلتهم الخاصة بالقياس الى الغير . وهنا نستطيع ان نعثر على كرامة الانسان المعاصر المهانة ، لانه لم يعد يجد نفسه مركز الكون وقطب الرحى فيه . والشعر الفرنسي ، منذ عهد رواية (مدام بوفاري) اخذت تميل الى تعقب (الذات) من خلال عملية التحليل والتامل الباطني ، وهذه الوسيلة ، اذا ما تطرفت ، لا بد ان تقودنا الى العجز النرجسي . وهذا الامر يفسره والاس فاولي ، بالقياس الى جيد ، على انه انقطاع للصلات العائلية ، باعتبارها عائقا للتطور الذاتي ...

اما وجهة نظر سارتر فتبرز في الحاجة الى تطوير المثل العليا اللاشعورية ، الى وقائع حية نلمسها لمس اليد . كما ان الالحاح الذاتي في التعبير اصبح ضرورة حتمية في بعض النوازع الحيوية ، مهما كان فيها من التواءات ... ومع افتقار هذه النوازع الى العقيدة ، او المصادر الخفية ، التي تحل المعضلات العميقة الفور ، فهي تعرض علينا فضائح الحرية الفرنسية ومبتذلاتها . وخلافا لما يعرف عن الانسان ، فانه منذ مولده يكابد جملة من الاوضاع الثابتة ، والقرارات الحاسمة ، حتى يثبت مركزه لا بالقياس الى الاسرة الانسانية بل بالقياس الى الكون نفسه ايضا . وهنا يحاول سارتر ان يبدع انواعا من التغيرات التي لا تستند الى قيم معينة . ومع عدم وصول سارتر الى نتائج حاسمة ، فلنغبط الفرنسيين على ما فعله سارتر ...

بعقوبة ــ العراق　　　　يوسف عبد المسيح ثروة

ــ تتمة المنشور في صفحة ٣٢ ــ

هذه اللغات تمييز جد ضئيل . وهكذا اخذ اللغويون يتحدثون عن وجود «احلاف» او «اتحادات» بين اللغات فبدت اهمية التصور الخاص بالتشابه (التقارب ــ التصاهر) affinité بين اللغات الى جانب التصور الخاص بالابوة بين اللغات .

ولكن بعض اللغويين يميلون الى القول بان الاثار الناتجة عن الاحتكاك بين اللغات غير المشتركة في الاصل آثار محدودة لا سيما فيما يتعلق بالبنية اللغوية . فهم يلاحظون انه ايا ما كان اخذ لغة من اخرى غير مشتركة معها في الاصل فان كلتا هاتين اللغتين يظل واضح العلاقة باصله ، فمن اليسير ان نميز لغة سلافية من اخرى جرمانية . ويضيفون الى هذا ان نسبة الصفات المشتركة بين اللغات غير المنتمية الى اصل واحد الى ما حدث بينها من اتصالات ، اي الى تاثير بنية لغة في بنية غيرها ، قد يكون اخذا بالظاهر ، وربما كان التفسير الحقيقي ان هذه الصفات ظهرت في اللغة التي يفترض تاثرها بسواها نتيجة التطور الخاص بها ــ هذا التطور الذي ينتج عن العمل المشترك لعوامل كثيرة تكون وحدانيته ــ دون ان يكون لاتصالها بغيرها اثر في ذلك ، اي ان هذه الصفات كانت ستظهر لو لم يكن هذا الاتصال .

بنغازي　　　　محمود السمران

البـــــاب

في غرفتي مكور انـا وحيـد
اقتات من نزيف اعصابي
اشرب من تنفس العدم
من طاسة الندم
وبابنا من ههنا بعيد
يشتاق وقع خطوتي
يحب دوما نقرتي
ما ضر لو اعود
يا بابنا ما ضر لو اعود

ما زلت اخطو في الدجى
اعـدد النجـوم
والليل فوق ضيعتي
وفوق بيتنا يحوم
وفوق كرمنا الذي
عرت دواليه الرياح
ارى هناك والدي
يداه للسمـــاء
مرفوعتان بالدعاء
والمح الصبـــاح
خلف تخوم الليل ساقط الجناح
امي ، على خفقـاته
تبحث عن حطام
امل في اشراقه
من غائب سلام
اماه بين وعدنا
عام او بعض عام

اماه كيف بيتنا بالله ما اعتراه
ما حال جارنا ترى يذكر لا يزال
ليلاتنا الشتائيات والاقاصيص الطوال
تغيرت . تغيرت معالم الحياة
قولي . اجيبي لم يزل يحرقني السؤال
ينقلني على جناح الذكريات الثائرة
لظل تينـة هناك
خلف الجدار صابرة
فالشوق كالعواصف الرعناء يحرق البراعما
ويشرب الدمـا
ويصلب الابواب في الضلوع مغلقة
على كثير من غريب السر تبقى مغلقة

انا هنا اخط فوق المقعد الكابي وحيد
لا زائر يسالني ــ مساء ــ كيف انت
ولا الصباح منجل عن موعد سعيد
من كوة صغيرة ارتقب الغدا
لا شيء في المدى
سوى صراخ الصمت

شباك غرفتي صديقي
قلبـه مكسـور
مثلي تئز الريح في شريانه
وتترك البؤس على قضبانه
مثلي . وتغرق الاحزان في احزانه
وبابنا من ههنا بعيـد
دهانه حال فلا لون له
لكنني اشتاق رؤيا بابنا
لانه قضى الحياة حارسا
يحنـو على احبابنا

دمشق — توفيق صرداوي

عار

بقلم نديم احمد طابوش

كانت الساعة تشير الى التاسعة ليلا ، وكنا قد زرنا اكثر مطاعم وارسو ولم نجد من يرحب بنا سوى يافطات كتب عليها « لم يبق محلات » .

ولهذا اشرت الى السائق انينطلق بنا الى « باتريا » ذلك المطعم المنعزل ولما وصلناه اخذنا نسابق احد العمال الذي انهمك بتعليق اللوحة الشهيرة « لم يبق محلات » .

... دخلنا ، وكان قاطع التذاكر يعرفني فلقد اتيت الى هذا المكان اكثر من مرة وشعر اثناءهـا هو وغيره من العمال بدخنا .. فقلت للصديقين وانا اشير اليه ..

ـ انه يعرفني .. وقد يسهل الامر تقدمت منه .. وفعلا لم تطل المساومة فلقد حمل عاملان طاولة ووضعاها بجوار حلبة الرقص .

وجلسنا نحن الخمسة ـ الصديقان وصديقتاهما وانا ـ وكان يجب ان نكون ستة والكل يعرف ذلك حتى انا .. الا انني كنت مرتبطا رغم بعد الشقة بين بلدي وبولونيا بوعد يذكرني به خاتم موجود فى بنصري .. فى اليد اليمنى ..

كان علي ان استعد لاواجه بعض الحملات على وضعي الشاذ كما كان يحدث في كل مرة ... وكما حدث معي سابقا قالت احداهن :

ـ لقد نسيت اسمك يا صديقي ، فما هو ؟

فقلت ماطا اسمي : عبد الرحمن .. يصعب نطقه وتذكره ، اليس كذلك ؟

ـ بلى وخاصة على لساني ... ربما لانه اعتاد ان يحتسي الفودكا وانت تمقتها .

ـ من يدري ؟.. ربما لانك تستعذبين الجميل فقط .

ـ والفودكا ايضا تدخل ضمن الاشياء الجميلة ؟.. هه .. يا لك من ماكر ، دعك من هذا الكلام الهين اللين .. ساخلق لك صديقة مثالية فى جمالها .. وان احببت فانتق التي تريد وعلي ما تبقى المهم هو ان تخرج من دائرة الاكل وسماع الموسيقى الى الرقص والصداقة ... فما رايك ؟

فقلت وانا اشير الى الخاتم الذي بيدي وبحركات تمثيلية وبلهجة ممطوطة : جميل .. ولكني لا اريد .

كان نفس الجواب وكانت نفس الحركات التمثيلية لجميع الفتيات اللواتي دنين منا طلبا للرقص ، او مشاركة للهو فى المطاعم التي اعتدنا ارتيادها حتى تلك الليلة .

كنت منهمكا فى تحضير خطة الدفاع وقول احدى الفتيات يرن في اذني :

ـ زوجتك في المطبخ تنتظرك .. فاذهب اليها .

قلت كنت منهمكا بتحضير خطة الدفاع عندما دنت منا فتاة اقل ما يقال عنها انها جميلة للغاية . تشعرك بانها تتيه بجمالها وكانها تقول « انك لم تر بعد شيئا »

وكانت قد كشفت عن الصدر والظهر اكثر مما رات عيني وربما عيون اكثر الناس ايضا

دنت منا وقالت موجهة الكلام الى الصديقتين :

ـ الكا .. سلفيا .. انتما هنا ؟. مرحبا ايتها العزيزتين اين كنتما طيلة هذه المدة ؟

وطبعا كان الجواب :

ـ اهلا وسهلا ، اجلسي .. يلزمنا فتاة لصديق وحيد اسمر كما ترين.

فقالت متصنعة الابتسام والاهتمام بي :

ـ اظنه انت .. اليس كذلك ؟

ـ نعم انا

ـ أتحب أن ...

وقبل ان تكمل حديثها اجبت بلهجة ممطوطة مشيرا الى الخاتم :

ـ كلا .. اني لا اريد .

فقالت بحدة : دعوتك للرقص والمرح .. وليس الى الفراش

ثم التفتت اليهم واكملت : عفوا يا جماعة

وانسحبت لتترك خلفها عاصفة هوجاء ضدي ، ولكنني تجاهلت ذلك ، واخذت اتلهى بتقليب وجوه الحاضرين او تناول بعض الماكولات بطريقة مفتعلة متلذذا بهذا الطعام الكريه على نفسي ... اما بشأن ما قالت فلها ان تقول ما تريد فلقد سمعت مرات عديدة مثل هذا الجواب ولو لم يصل الى هذه القحة .

المهم انها انصرفت .. وهذا بدون شك نصر مبين لي

كنت لا زلت اقلب وجوه الحاضرين عندما وقع بصري على فتاة تجلس مع احد الشبان بمكان منعزل اشبه ما يكون بعريشة صغيرة ..

.. كانت شقراء .. جميلة .. من الفتيات اللواتي يجذبن ابصار الناس حينا قسرا وكرها واحيانا اخرى لينا ومحبة .. وتمعنت بهذا الجمال الملائكي .

لقد اثارت فضولي بجمالها ... وبهذا الهدوء الذي يشبه هدوء ورزانة الفتيات فى بلاط ملكي نوجدتد في مراقبتها تسلية ومخرجا .. ولقد تماديت عندما سمعت احدى الصديقتين تقول :

ـ حمدا لله لقد وجد شيئا اخيرا

فعلا لقد وجدتها .. فهي تشبه خطيبتي رغم قناعتي ان التي املي اجمل منها بكثير وانها كالثمرة الناضجة تماما وان خطيبتي لم تنضج ..

ادهشني حزنها المتزايد وخاصة بعد ان حضرت فتاة اخرى وجلست بينهما.

لقد كانت حزينة وذلك عندما

قصة

وقف الشاب نفسه لمراقصة الفتاة الاخرى . وكان حزنها اشد عندما عزفت الفرقة الموسيقية اغنية « حبيبي الاسمر » ولا اكذبك القول كنت حتى ذلك الحين قد نلت منها عدة نظرات متواليات الا انها كانت تغض الطرف فى كل مرة متجاهلة حركاتي التي تسبق كل تعارف فى مثل هذا المجال. نخطر لي ان احطم هيبتها ان انتقم ... ان اجذبها الى الاسفل الى حيث زميلاتها ومن ثم اقول لها : يا سيدتي لم تمثلين حياة الطاووس .. فالواقع انني لم ار فرقا جوهريا بينك وبينهن ...

لقد عزمت على ذلك ولهذا دنوت منها لاقول متصنعا اللطف والحنان :

ــ اتسمح لي سيدتي بهذه الرقصة ؟

لم استغرب عندما هزت راسها بالايجاب ولم يزد استغرابي حينما طفت على وجهها الحزين ابتسامة سريعة للغاية .. قلت لم استغرب لانها الطريقة الوحيدة لمثل هؤلاء الفتيات يتصنعن حياة الرزانة والكبرياء وحياة الطواويس .

كل شيء اعرفه عنهن وان كان عهدي بهن حديث ..

مثل هذه الافكار كانت تراودني حينما كنت اراقصها على انغام « حبيبي الاسمر » بينما لا يراود الفتيات الراقصات سوى المرح والبهجة مما دفعهن الى ترديد الاغنية مع الاوركسترا : « هوذا حبيبي ،
وشعره بلون الكستناء »

وتابعنا مع الناس الرقص .. وسمعت خلال ذلك من « تمارا » وهو اسمها ــ قصتها او مصيبتها كماقالت وتتلخص بان الفتاة وتقصد بذلك تلك الفتاة التي تراقص زوجها .. هي صديقة له وانها لا تملك ان تبعدها عنه وستتركه لها لانه الطريق الوحيد لانقاذ ما تبقى من كرامتها ..

ولما توقفت الفرقة عن العزف .. كنت قد قررت ان اتوقف بدوري عما عزمت على تنفيذه فالواقع ان ما بها يكفي ومن ثم اذا كانت مثلهن او غير ذلك فانه لن يفيدني شيئا .. يجب ان اتركها ا ن انفر منها . ما اسخف قولي .. « يا سيدتي لم تمثلين حياة الطاووس .. فالواقع انني لم ار فرقا جوهريا بينك وبينهن »

بل ما اسخفني لو قلته . ساحتقر نفسي لو قلت مثل هذا القول

يجب ان اتركها لهذا الزوج الاعمى.

بلى اعمى ولو انه يرى الجمال لشاهده فى زوجته لا بتلك الفتاة الدميمة التي لا تملك شيئا من الجمال او حتى الجاذبية .. الا اذا اعتبرنا الميوعة بابا من ابواب الجمال والجاذبية كما اتفق على ذلك بعض الناس ..

بلى علي ان ادعها لزوجها واسير .. فتقدمت منه وشكرته .. وهممت ان اشكرها الا انه قاطعني قائلا :

ــ لا يمكنني قبوله .. يجب ان تشاركنا اولا .. اليس كذلك يا « تمارا » ؟

كنت اعلم انه يريد التخلص من هذا العبء الثقيل الذي يجثم على صدره .. فنظرت اليها فوجدت بعينيها رجاء .. رجاء بان اجلس اليها ان اشاطرها مباهج هذه الليلة .. ليلة الاحد .. ليلة المرح والراحة فى الاسبوع

وكان علي ان افر بعيدا كما اتفقت مع نفسي الا انني لم استطع فلقد تسمرت قدماي ولكن .. لا باس ساقف بجانبها حتى منتصف الطريق .. ساجعلها تضحك ملء فيها .. وترقص حتى الاعياء وتميل مع الفتيات وتردد معهن اغنية « حبيبي الاسمر » ...

نعم سابقى بجانبها حتى الصباح ثم اودعها من حيث جئت الى غير رجعة تماما كالحلم الجميل بالنسبة لي وكالمنقذ بالنسبة لها . بلى انها عملية انقاذ بحتة . ويجب علي انقاذها من الحزن وربما من الموت ايضا .. كالغريق تماما .. ومن يبخل على الغريق ولا يمنحه الحياة؟

وفى هذه الاثناء وقبل ان يتم التعارف بيننا عزفت الموسيقى اغنية « الفتى الذهبي » فقام زوجها مع صديقته وكان علي ان اراقص « تمارا » واردت ان اخفف عنها فقلت :

ــ لن تقدري سعادتي يا سيدتي لو منحتيني هذه الرقصة

فنهضت لتسير باتجاه حلبة الرقص وهي تقول :

ــ وهل يسعني ان ارد اجمل قول سمعته في حياتي ...

كنت مصغيا اليها كل الاصغاء عندما سمعت احد الاصدقاء وهو يقول لي بالعربية ..

ــ وداعا ايها الشهيد المتخلف .. والى الملتقى غدا ..

تجاهلت قوله واكتفيت بان اشرت براحتي ومن خلفي وكاني اقول له : « لا ردك الله »

ــ وبدانا الرقص بنشوة عارمة وسعادة باستطاعتها لو قسمت لانعشت الملايين .. ولم لا فلقد وجدت ضالتها .. وانا ايضا انتصرت وفزت ايما فوز ...

الم تكن حزينة يائسة تاكلها الهموم ... الم تكن تريد الطلاق ؟ وربما الموت لهذا الخصم على اقل تقدير ..

لقد تناست كل شيء سوى الرقص والضحك وترديد اغنية « الفتى الذهبي » مع المرددين ...

ايتها الفتيات الحالمات ...

كل ما ترغبن به من صفات يمتلكها حبيبي ...

ذاك الفتى الذهبي ...

فاعذرنني اذا تساهلت ونزلت عند رغباته ..

انه الفتى الذهبي ...

جميل ان تقبلن هذا العذر ...

من منكن لا توافق ..

رايتها تتوقف عن الغناء لتقول:

ــ انها باردة لا تتناسب مع الجو بعكس « حبيبي الاسمر » الا توافقني؟

ــ بلى الاولى اقوى وباستطاعتها ان تهب الدماء الحارة الى القلب المقرور والتورد الى الوجه الذي اشحبته رياح الخريف بلى يا عزيزتي انها

تملك ما تريد ... سوى أن تحي وتميت ...

وكنا قد صرنا بجانب الحلبة قريبا جدا من الاوركسترا فاعتذرت لها عن متابعة الرقص قائلا :

ـ معذرة يا جميلتي الشقراء ...

ثم مددت يدي الى جيبي ودفعت مئة زووطي الى قائد الفرقة قائلا :

ـ « حبيبي الاسمر » اذا امكن

كان المبلغ ضخما جدا بالنسبة الى طلبي .. الا ان وقعه في نفسها كان اشد واقوى وخاصة عندما انقلبت الموسيقى تعزف « حبيبي الاسمر » راسا وقبل ان تنتهي المعزوفة الاولى لقد قلت عن هذه المعزوفة دون ان اقصد : باستطاعتها ان تهب الدماء الحارة الى القلب المقرور والتورد الى الوجه الذي أشحبته رياح الخريف.. بلى يا عزيزتي انها تملك ما تريد .. سوى أن تحي وتميت ...

فلقد شعرت بالدماء تنساب في عروقي حارة لاهبة انعكست على وجهي وبدت بتصرفاتي وحركاتي اثناء الرقص وشعرت للمرة الاولى ان للرقص معنى وان للايقاع حياة .. تماما كالمتصوفين لا يشاهد الناس ما يشاهدون وبسعادتهم لا يشعرون .

كانت فكرتي ناجحة بل ومضة من ومضات فكري في مجال هذه صفاته وتلك ميزاته .. مجال لا حسب لي فيه ولا قوة . المهم انها ومضة ظهرت ويكفيني سعادة انها ظهرت في حينها فضلا عن السعادة التي حققتها لـ « تمارا » هذه المسكينة .

وبالرغم من قصر ما تبقى من الليل فقد طلبنا « حبيبي الاسمر » عدة مرات حتى غمرت السعادة كل شيء وحتى ان تمارا لم تحزن عندما قال لها زوجها :

ـ سارافق ماريشا ـ مشيرا الى صديقته ـ الى البيت .

وقام قبل ان يسمع الجواب ..

كانت الساعة قد قاربت الثالثة بعد منتصف الليل .. وكان علي ان اذهب الى الفندق لانام فبعض الاعمال تنتظرني غدا ولا بد من النوم .. ولكن علي ان احضر خطة استطيع بها اكمال مهمتي وانسحابي بعد ان اجتاز بها منتصف الطريق .. النصف الاول فقط .. النصف الوعر بالنسبة لـ « تمارا » وهو بالنسبة لي سهل ميسور رغم ما فعلت بي « حبيبي الاسمر » اما الاخر فانه يصعب علي بل يستحيل .. اما عليها فانني لا استطيع التخمين .. المهم ان تقضي سهرة ممتعة وكفى ... اما في الصباح فلتدبر امرها بنفسها .. وربما تستعين بعملها على مصابها .. وربما ..

.. كنت احاول تدبير خطة .. الا انها قطعت علي تفكيري لتقول :

ـ لقد حان موعد ذهابنا اليس كذلك؟

فقلت : بلى ..

وقبل ان تشعر برغبتي الجامحة بالذهاب قلت :

ـ بلى اذا شئت وانا ـ كما تعلمين ـ طوع امرك ..

قالت وقد غمر قلبها السرور :

ـ الا ترافقني الى البيت ؟ ..

ـ طبعا .. انه الذوق السليم .. يجب ان ارافقك ومن ثم اعود الى الفندق

ـ شكرا .. شكرا على كل شيء .. انك انسان ظريف ..

ـ لا موجب للشكر ... هيا ..

.. كان الجو مشبعا بالرطوبة والغيوم كثيفة متراكمة حتى ارتفاع منخفض جدا والهواء بارد نوعا يحمل معه زخات من المطر الخفيف .. وبسهولة استطعنا الحصول على سيارة كانت تنتظر على باب المطعم باختلاف الليالي السوالف .

وتكفلت « تمارا » بان اعطته عنوان البيت اما انا فكنت بحاجة ماسة الى النوم منذ امد بعيد فارخيت جفوني محاولا النوم بينما أخذت اتصور الهالة القاتمة التي ستحدق بعيني غدا فانها المرة الاولى التي اسهر فيها حتى الصباح .. واراقص كلما عزفت الموسيقى ...

لم استطع مواصلة التفكير فلقد وقفت السيارة فالبيت على ما يظهر قريب .. فهتفت « تمارا » بمرح زائد هو ذا البيت ...

نزلت فنزلت خلفها واشرت للسائق بان ينتظرني اما هي فقد ركضت باتجاه الباب .. واضاءت الكهرباء فتقدمت منها وقلت وانا اصافحها :

ـ زوجك في طريقه اليك .. لن تشعري بالوحدة طويلا .. واشكرك على هذه السهرة اللطيفة وقد لا انساها مدى الحياة ...

فقاطعتني :

ـ لن يعود زوجي .. وهي ليست المرة الاولى .. ارجوك ان تدخل

ـ لا .. لا .. لا تفكري بهذه الطريقة .. وانا كما تعلمين لي خطيبة وانت متزوجة وان اهملك زوجك ..

ـ ارجوك ان .. كف عن هذا الكلام ... سأسمعك اغنية جميلة ..

ـ ألوقت متاخر والجو بارد يجب ان تدخلي .. تصبحين على خير ..

وسرت فوصلني نشيجها فاخذت الارض تميد من تحتي وكدت لا ارى السيارة امامي وخاصة عندما وصل إلى سمعي صوت الحاكي يردد « حبيبي الاسمر »

هو ذا حبيبي ...

عيناه بلون الكستناء ...

وشعره بلون الكستناء ...

وهو ايضا قوي كجذع الكستناء ...

هو ذا حبيبي ...

ففتحت باب السيارة وهممت بالدخول فالقيت نظرة اخيرة اليها فوجدتها وقد وقفت شاردة الفكر زائغة النظر رغم انها تحدق بي وصوت الحاكي يردد «حبيبي الاسمر»

فمادت بي الارض اكثر فاكثر وشعرت وكان على عيني غشاوة وانني ذاهب في اغماءة لا محالة فالرعدة قد سيطرت على اوصالي ... وان راحتي ابرد من الثلج رغم اني احس بالدماء حارة في عروقي ... وبدون تفكير اعطيت السائق اجرته قائلا :

ـ شكرا يمكنك الانصراف ...

اللاذقية نديم احمد طابوش

هذه القصيدة نشرت في العدد الماضي دون ان تصحح - سهوا - فنعيد نشرها معتذرين

روح الربيع

مل قلبي من الضلال فدعه   في حمى الفكر يسترد امانه
لا ترقرق لي السراب بدنيا   غرقت في عبابه ظمآنه
قل لمن زخرف الفراغ غرورا   حلية الكاس أن ترى ملآنه
من يرعه الجمال فتنة شكل   انا اهواه روحه ولسانه

لا تقل لي الربيع قد زخرف السفح ووشى على الربى الوانه
قد عرفت الربيع فهو صبي الدهر يغري بلهوه صبيانه
ماسخ حكمة الربى ثرثرات   لقنتها سفوحه غدرانه
وصلاة الكهوف رنة ناي   ارقصت فوق سفحه قطعانه
توجته يد السحاب فداست   ارجل البهم في الربى تيجانه
ما وقاه سلطانه من اذى الجور ولا اسطاع ان يقي سلطانه
كيف تحميه شوكة فتقتها   لك كفاه زهرة ريانة
هو طفل الطبيعة الغر قلبي   مسترق لامه الفتانة
انا شاركته قديما هواها   وعلى ثديها اقتسمنا لبانه
قد تملقتها به يوم ثرثرت لديها مقلدا الحانه
وتقربت نحوها بخطاه   حاملا فوق مبسمي اقحوانه
وتناسيت منطقي في هواها   مستعيرا من طفلها هذيانه
قربتني، ما انكرتني كاني   كنت روح الربيع او ريحانه
لا تسلني عن الصبا مات في قلبي والقى عن معطفي ريمانه
وذوت بسمة المنى واستحالت   غصة في فم يعض بنانه
لمن الزهر نجتنيه؟ فدعه   لا اراه مكفنا اغصانه
لا حبيب اعطيه نفحة قلبي   لا صديق اذيقه اشجانه
كان للزهر بهجة في جفوني   يوم كانت حشاشتي بستانه

شاخ مجد الربيع في الارض وانهار فامست عكازه صولجانه
وتهاوى برنه العرش نعشا   حلي اعراسه غدت اكفانه
فلثكله لامه من ثكول   مزق اليأس حلمها والرزانة
ولولت في السفوح تبكي فتاها   وتلوت على الربى عريانه
اين ارث الربيع؟ اين بقايا   من كنوز حرية بالصيانه
حفظتها له الربى، كل غار   فيه كنز وكل كهف خزانه

يا حبيبي دع القنوط فقلبي   لم يلملم عن الجياع خوانه
هو قلبي في راحتيك، اجبني   كم تمليت عاصرا شريانه
من دمي رونق بوجهك يزهو   فوق عطفيك مسدلا ارجوانه
لا يرعك الربيع يشحب في السفح ويطوي عن الربى لمعانه
انا ارجعته اليك فتيا   ضاحك البشر لابسا عنفوانه
رحمته الحقول يخمل فيها   فاوتسه من شاعر ديوانه
هو روح الربيع، دونك كاسي   لك قطرت شمسه وجنانه
لم ارقرق لك السراب شرابا   فخذ الكاس من يدي ملآنه
كيف يسقيك دفقة الصمت نبع   رنة الخلد رافقت جريانه
سيقول الجمال ان عاش بعدي   ليت كل الازمان كن زمانه
يخرس الحلي في التراب وتبقى   حليتي حول جيده رنانه

فارس سعد

الى اختي ادماء

لو كنت املك ان اطير
لو كان لي جنحان ترفعني
الى كبد السماء
لو كنت عصفورا صغير
يعلو ..
يزقزق في الفضاء
او غيمة بيضاء ... ناعمة الجناح
تمضي على كف الرياح
تمضي ... وفي احضانها
الخير الكثير
لو كان في كفي .. مفتاح القضاء
او كنت املك ما اشاء
لهزئت بالدنيا ... وسخرية القدر

لو كنت احتمل المسير
لعبرت مومأة الفراغ ..
بلا حذر
لروجك الخضراء ..
للبلد الاغر .
لتمر فوق جبينك المعقود
تهزأ بالضجر
كفان حازمتان ... من لون الشرر
لو كنت اشرطة العبير
لمسحت عن جفنيك
اثار الملالة والسهر
لحملت ما تلقيه
اقدام المسا
بطريقك الحيرى ...
وانبت الزهر

ما زلت يا اختاه .. في فجر الحياة
لم تنفتح اكمام زهرك
للندى ...
لحفيف اجنحة الفراش
ما زلت يطربك الهديل ...
وترقصين مع النهر
ما زال دربك سببا حلوا
وما زالت خيالات الصغر
تنمو على شطيه ... تبسم للصباح
فلم الاسى ؟!

اختاه ... لا .. لا تسمحي
للحزن يعبر او يقر
فانا فدى عينيك ... ضاحكة الصور
وفدى اللي تبغين فعلته
ولو عبس القدر .
انت الصبا والطهر والامال
عاطرة الوشاح
انت انبلاج الفجر .. في بلد نأى
انت الصباح
لا تعبسي ... سترين دروب الليل
ضواها القمر

لو كنت املك ان اطير
لو كنت عصفورا صغير
امضي ... وتحملني الرياح
اعلو .. ازقزق في الفضاء
لاعيش قربك .. كي نسير معا
ونهزأ بالجراح

عصمت حمارنة
الجامعة الاميركية ببيروت